الابتهالات والمدائح في حضرموت

الابتداء والانتشار

مدينة الشحر نموذجاً

الأستاذ / عبد الله صالح حداد

الابتهالات والمدائح في حضرموت

الابتداء والانتشار

مدينة الشحر نموذجاً

الأستاذ / عبد الله صالح حداد

رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب م / حضرموت ( )

عنوان الكتاب :
الابتهالات والمدائح في حضرموت
الابتداء والانتشار
مدينة الشحر نموذجاً

المؤلف :
عبد الله صالح حداد

الإخراج الفني :
عدنان أحمد الصبان

الطباعة والفرز :
مطابع وحدين الحديثة للأوفست
المكلا ـ ت : ٠٥٣١٦٦١٥

٢٠١٨م

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد...

لا أظن أن أحداً يكتب بحثاً دون أن يكون له هدف يسعى لتحقيقه أو للتأكد من صحته أو لإقناع الآخرين بصحة ما كتبه أو غير هذا. ومحاولتي هذه لا تخرج عن هذه الفكرة، فقد قرأت عن التصوف، خاصة السماع فيه، وذلك من خلال اهتمامي بالشعر العامي وشعر الأغنية، فاجتمع لدي بعض من معلومات حاولت جمعها في ملف واحد أعانني في محاولتي الكتابة تحت عنوان هذا البحث: «الابتهالات والمدائح في تريم، الابتداء والانتشار، الشحر نموذجاً».

لقد تتبعت مسيرة النشاط الصوفي الغنائي المعروف بالسماع في بغداد منذ ابتداعه وحتى تطوره في المغرب ثم وصوله إلى حضرموت وخاصة مدينة تريم، ثم انتشاره في حملات مقصودة ومنظمة لغرض تصديره إلى أماكن عديدة، وخلق الفرص واستغلال المتاح منها للقيام بهذا النشر. وجعلت مدينة الشحر نموذجاً لهذا الانتشار.

---

* نشر هذا البحث في كتاب : أبحاث ودراسات فعاليات ملتقى تريم الثقافي بمناسبة تريم عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٣٣هـ - ٢٠١٠م.

مدخل

الغناء في حضرموت:

أسلم أهل حضرموت في العام العاشر للهجرة، حيث وفدت إلى الرسول ﷺ وفودهم فيما عُرف بعام الوفود، لكن الرسول ﷺ لقي ربه في العام الذي يليه ١١هجرية.

ثم مرت ما يعرف بالردة، واتهمت قبائل من كندة بذلك، ودارت رحى الحرب بين المسلمين بقيادة المهاجر بن أمية، وكان عاملاً للنبي ﷺ ثم استخلفه خليفة الرسول ﷺ الصديق لقتال أهل الردة.

وبعد معارك طاحنة لاذت كندة بقيادة الأشعث بن قيس ومن معه إلى حصن (النجير) الواقع شرقي مدينة تريم، وهو حصن لقبيلة حضرموت استولى عليه أولئك الأفراد من قبيلة حضرموت الذين انحازوا إلى المرتدين.

وبصرف النظر عن تسمية هذه الحرب، وهل هي حرب ردة أم أن هناك تشنجاً قبلياً أدى إلى ما كان من تلك الحرب في حضرموت. لننظر في كتاب الفتوح لابن أعثم (ج١/ ٤٧-٦٠) وكتاب عبد القادر الصبان، جهاد شعب (صدر بالرونيو).

وهناك إشارات وردت في مصادر هامة أفادت بأن نساءً من قبيلتي حضرموت وكندة تغنت بهجاء المسلمين، قال البلادري في تاريخه: «كان بالنجير نسوة شمتن بوفاة الرسول ﷺ...» وقال ابن حبيب في كتابه المحبر: «وضربن بالدفوف...» وذكر الطبري في

تاريخه رسالة الصديق إلى المهاجر: «بلغني الذي سرت به في المرأة التي تغنت وزمرت بشتيمة الرسول ﷺ...».

المصادر الثلاث تفيد بأن الغناء كان مصحوباً بالزمر والدفوف، لكن إشارة البلادري تفيد بأنه حدث بالنجير، فلربما كان الغناء تشجيعاً للمحاصرين بالنجير وتخلله سب وشتم للذين يحاصرونهم، فإن أحد المستشرقين يقول أن العقوبة وقعت بعد أن أخمد المهاجر بن أمية ثورة المرتدين[1].

نحن في مقامنا هذا يهمنا ذكر التغني المصاحب للدف والمزمار، وأنه يثبت لنا أن القوم كانوا يمارسون الغناء بالآلات الموجودة عندهم، أما إذا قلنا أن هذه من أخبار محمد بن حبيب وهو معروف بكذبه[2]، فإن لدينا أكثر من دليل على ممارسة الغناء في حضرموت ومن ذلك: إشارة الشاعر الأعشى إلى إحدى قيان حضرموت في قصيدة قال:

وصدوح إذا يهيجها الشر ب ترقت في مزهر مندوف

ومثل ذلك في مدحه لقيس بن معدي كرب الكندي، ومدحه لمسروق بن وائل الحضرمي، والشاعر الأعشى نفسه كان يتغنى بشعره وقد سمي بصناجة العرب، ونجد عند الأصفهاني أن الأعشى اتخذ أحمد النصيبي مغنياً لأشعاره. وعلى هذا فأن الغناء إذا كان وسيلة أفراح فإنه على الصعيد الشعبي منتشر في المناسبات وهو على الأقل في الزواجات وعادات أخريات كاحتفالات الختان مثلاً...

الأباضية والأغنية:

لابد من أن الفكر الأباضي قد سبق يوماً من أيام عام ١٢٨هـ، الذي بايع فيه ابن عوف وأهل حضرموت عبد الله بن يحيى الكندي بالخلافة الأباضية في حضرموت ولقبوه بطالب الحق، ويظهر أن ابن يحيى قد انضم إلى الحركة الأباضية قبل ذلك العام، وأن السرية والكتمان التي تبناها الأباضيون في عملهم التنظيمي هي التي جعلته يدعو في السر ويعمل على نشر الدعوة والمبادئ الأباضية حتى لا يتعرض لأذى ولاة الأمويين القيسيين. ويرى البعض أن هذا كان سبب عدم معرفة انتمائه إلى الأباضية عند أغلب المؤرخين السنيين كالطبري وابن الأثير[٣].

ويكفي للوقوف على حالة الغناء في تلك الفترة ذكر ما جاء في كتاب السالمي فيما يتعلق بالفروع الفقهية والتي تختص بآلات الغناء، فهو يقول: «يجب أن تتلف وتكسر آلات اللهو التي لا تصلح لغيره ولا يرخص حتى بضرب الطبل في أي معنى من معاني اللهو، ويجوز استعماله في الحرب وإجابة الصريخ المستغيث:

وآلة اللهو التي لا تصلح لغيره تكسر حين تلمح
ولم يرخصوا بضرب طبل للهو لكن لمعاني العدل
وذلك كالإرهاب للأعداء وكإجابة الصريخ النائي[٤]»

ورغم أننا لا نستطيع القول بأن الحضارمة توقفوا عن ممارسة الغناء، لكن ربما كان التوقف في الحواضر، أما في رؤوس الجبال وأعالي الوديان وعند القبائل ورجال البادية وعلى الأقل الاحتفالات والعادات فإن الأمر كما يبدو لنا مستمراً. ثم إن البشاري المقدسي صاحب كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) قد زار حضرموت ووضع كتابه في عام ٣٧٧هـ،

وقال في فقرات متباعدة منه عن أهل حضر-موت: «لهم في العلم والخير رغبة إلا أنهم شراة شديدة سمرتهم» وقال في موضع آخر: «وأهل حضرموت نواصب غتم» وقال: «هجر للقرامطة وعلى الأحقاف أمير منهم».

إن هذا ليؤكد أن حضرموت لم تكن كلها أباضية، وأن القول بأن الإمام أبا إسحاق الهمداني إمام الأباضية في حضرموت، ولم يحكمها كلها به بعض من الصحة إذ أن بعض القبائل تخرج عليه لأسباب مختلفة، ثم أن القرامطة نزلوها (في أوائل القرن الرابع الهجري مدة ثم تركوها)[٥]، ولم نستطع معرفة سبب الترك هذا، أكان زهداً فيها، أم أنهم وجدوا مقاومة من سكانها.

الصليحيون:

قال إمام الأباضية في حضرموت أبو إسحاق:

وأما نواحي حضرموت فإنها بحول إلهي طوع أمري كخاتم
سوى نفر كانوا عصاة فأصبحوا من الخوف في روس القرى كالحمائم
ولم يبق لي إلا الصليحي قائماً وها هو أيضاً سعده غير قائم[٦].

ويظهر أن هذا الإمام لم يكن إلا في أزمان متباعدة وتبعاً لقوة وضعف الدولة الأباضية في حضرموت.

إن الصليحي الذي يذكره الهمداني في قصيدته، هو صاحب الدولة الصليحية الإسماعيلية، وهي امتداد للدولة الفاطمية في المغرب ثم في مصر. وليس لدينا تفصيلاً عن

استيلاء الدولة الصليحية على حضرموت، وكل الذي يذكره المؤرخون لا يزيد عن قولهم، وامتدت أيدي الدولة الصليحية إلى حضرموت. قال أحدهم: «ولما قامت الدولة الصليحية سنة ٤٢٩هـ بسطت نفوذها على الشحر سنة ٤٥٥هـ»[٧].

ولقد ذكر محمد بن مالك الحمادي في كتابه (كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة) قائلاً: «إنه مذهب الراحة والاستباحة، يريح أتباعه مما تلزمهم الشرائع من طاعة الله ويبيح لهم ما حظر عليهم من محارم الله» فكيف لنا أن نتصور حدوث هذا مع الشراة المتشددين في إسلامهم.

أن القول بأن الصليحية امتداد للفاطمية ليس في السياسة والاستراتيجية ولكن أيضاً في الأيدلوجية، وأن الذي نقرؤه عند الدكتور محمد عنان في كتابه (الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية) خاصة فيما يتعلق بالمراسيم الاجتماعية والدينية والاحتفالات بالأعياد والرسوم الفاطمية، نجد البعض منه مطابقاً لما هو ممارس عندنا إلى اليوم. ولهذا لا بد من معرفة ما يلقي الضوء على النشاط الفني لدى الفاطميين في المغرب ومصر.

الدولة الفاطمية:

بدأت الدعوة الفاطمية في عهد دولة الأدارسة بالمغرب، وتولى الدعوة لهم أتباع المذهب الإسماعيلي الباطني، الذين يقولون ويدعون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، الذي توفي في حياة والده.. وقد سخر أنصار الشيعة الإسماعيلية العقائد الإسلامية لخدمة أغراضهم السياسية ، كما فعل القرامطة في إيران، وفسروا القرآن تفسيراً مجازياً باطنياً، وكانوا يختارون

الدعاة الأكفاء لنشر دعوتهم ومذهبهم في مختلف الأوطان الإسلامية. وأرسلوا إلى المغرب داعيتين هما: السفياني والحلواني، وأخذا يدعوان الناس لفكرة الإسماعيلية حتى توفيا، فخلفهما أبو عبد الله الشيعي الصنعاني الذي جعل يدعو للمهدي المنتظر ظهوره من ذرية علي وفاطمة. وكان عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل الثاني بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق قد ولد في قرية السلمية ببلاد الشام عام ٢٦٠هـ-٨٧٣م، واختلف في نسبه هذا حتى قيل أنه مجوسي من سلالة ميمون القداح المجوسي. لكن الطعن لا يمكن الأخذ به لأنه صادر عن خصومه وخاصة العباسيين الذين لا يريدون أن يشاركهم أحد في الخلافة، كما لا يمكن إثبات كونه من سلالة فاطمية بسهولة، فالأمر يحتاج إلى تحقيق. وقد تعرض عبيد الله المهدي لمزيد من الضغط والاضطهاد من طرف العباسيين، فاضطر إلى الاختفاء عن الأنظار وكلف داعيته الكبير أبا عبد الله الصنعاني في أن يقوم بالدعوة لفكره في بلاد المغرب النائية عن مركز الخلافة، وعن أعين العباسيين، وأمره أن يبدأ عمله هناك بالدعوة للمهدي المنتظر حتى لا يتعرض للمقاومة[٨].

وقد عقدت البيعة لعبيد الله بإمارة المؤمنين يوم الجمعة ٢١ربيع ثاني ٢٩٧هـ(٩/ ١/ ٩١٠م)، فأعلن في الحال انفصاله عن الخلافة العباسية... وبعد أن سيطر الفاطميون على أقطار المغرب من طابخة إلى طرابلس، أخذوا يوجهون أنظارهم إلى مصر[٩].

ثم انتقل مركز الدولة الفاطمية إلى مصر وحكم هناك عشرة خلفاء، وانفصل المغرب عنهم في عهد المنتصر بالله بن الطاهر (٤٢٧-٤٨٧هـ = ١٠٣٦-١٠٩٤م). وانتهت دولتهم بموت العاضد في شهر محرم عام ٥٦٧هـ (١١٧١م). وكان وزيره صلاح الدين قد حول الدعوة إلى العباسيين والخليفة الفاطمي لا يزال على فراش الموت[١٠].

وقد ازدهرت الحركات الفكرية والثقافية في عهد الفاطميين ووجدت الأفكار الشيعية طريقها إلى الناس عن طريق حلقات الدروس التي كان ينظمها دعاة الفاطميين في مختلف المدن المغربية خاصة رقادة والقيروان وتلمسان وبجاية وغيرها.

الغناء والموسيقى:

كانت تونس وخاصة عاصمتها القيروان قد عرفت نشاطاً فنياً ملحوظاً، فأمها المغنون والموسيقيون من كل حدب وصوب، وضمت بلاطات الملوك الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ = ٨٠٠-٩٠٩م) حاشية من الجواري المغنيات ومن الموسيقيين الملحنين. وهذا سبق فني بلا شك ساعد على تحقيقه ما عرفته القيروان آنذاك من استقرار نسبي في الحكم[١١].

ومن الطبيعي أن تؤتي هذه الحركة الفنية أكلها في الأعوام التي تلت في كل أجزاء المغرب. على أن غناءً رافق هذه الحركة الفنية وهو الذي عرف بالغناء الصوفي. ويقول مؤلف كتاب (الأغنية العربية): «لقد دخلت الموسيقى إلى الطرق الصوفية من بدايتها على يد الحلاج»[١٢]، ولكن الإمام محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ = ٧٦٧-٨٢٠م) بعد أن غادر بغداد إلى مصر تحدث عن لون من الغناء أحدثته الزنادقة في بغداد اسمه (التغبير). أحدثوه ليصدوا به الناس عن القرآن الكريم، ونص عبارة ابن تيمية: «قال الشافعي رضي الله عنه: خلفت ببغداد شيئاً أحدثه الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن» على هذا فإن ما جاء عند صميم الشريف ليس صحيحاً، حيث أن الحلاج قد عاش الفترة ما بين (٢٤٤-٣٠٩هـ = ٨٥٨-٩٢٢م) وكان الإمام الشافعي صاحب المذهب قد غادر بغداد إلى مصر عام ١٩٩هـ. وكان قد زار بغداد للمرة الأولى عام ١٨٤هـ متهماً بالعلوية، أي الدعوة إلى

خلافة العلويين خصوم العباسيين، وقد نجا من الموت، ومكث بها زهاء تسع سنوات لطلب العلم وعاد إلى مكة. ثم زار الإمام الشافعي بغداد عام ١٩٥هـ ومكث بها ثلاث أو أربع سنوات لطلب العلم ثم غادرها إلى مصر، وبها تحدث عن (بدعة التغبير).

ومن هنا يلاحظ أن الإمام الشافعي توفي قبل أن يولد الحلاج بأربعين سنة، لكن ربما يكون الحلاج قد نظم هذه البدعة أو أكثر منها أو نشرها وخرج إلى الأسواق وعند العامة ومارسها جهاراً نهاراً.

أمر الحلاج:

والحلاج من أصل فارسي، لا يمت للعروبة بأية صلة نسب، وهو الحسين بن منصور بن محمى، الحلاج أبو الغيث، كان جده مجوسياً اسمه (محمي) من أهل فارس، ولد عام ٢٤٢هـ = ٨٥٨م في بلدة (طور) وهي إلى الشمال الشرقي من مدينة البيضاء في كورة (صطخر) أعدم في بغداد لسبع بقين من ذي الحجة ٣٠٩هـ بعد أن صدر في حقه حكم الإعدام.

وفي شرح العقيدة الأصفهانية يقول الإمام ابن تيمية: «لما دخل بغداد كانوا ينادون عليه، هذا داعي القرامطة وكان يظهر للشيعة أنه منهم»[١٣] وفي (الفتاوى الكبرى) له، قال عن الحلاج: «هذا داعي القرامطة، أقام في الحبس مدة حتى وجد من كلامه الكفر والزندقة واعترف به»[١٤].

ويضيف الدكتور شوقي ضيف: «ومن الممكن أن يكون دعا سراً للقرامطة وأن تكون هذه الدعوة من الأسباب في سجنه وصلبه».

لكن الدكتور توفيق الطويل يقول في كتابه (في تراثنا العربي الإسلامي) ما نصه: «والمعروف أنه اعتنق دعوة القرامطة، وكانوا ألد أعداء الخلافة الإسلامية، وتصدى للتبشير بها في خراسان وفارس والهند وغيرها»، ويقول: «أما قضيته الأخيرة فقد بدأت بهربه من رجال الشرطة الذين ألقوا القبض عليه بعد ثلاث سنوات، وصلبوه ثلاثة أيام لأنه كان داعية من دعاة القرامطة»[١٥].

لقد أحدث الحلاج بدعاً خالفت حتى ما ورد صريحاً في محكم آيات الله سبحانه وتعالى، فقد رفع الرسول ﷺ مرتبة فوق جميع الخلق، ويبدو أنه أول من أعد لفكرة الحقيقة المحمدية، وأن محمداً بتلك الحقيقة لا بصورته الجسدية يُعد مبدأ العالم، إذ هو النور الذي تفجرت في ينابيعه جميع النبوات بل هو الوجود كله ونبعه الفياض السابق لكل موجود[١٦].

وبهذا فهو قد أحاط الرسول ﷺ بهالة قدسية، تشبه الهالة التي يحيط بها المسيحيون المسيح عليه السلام، وكان لذلك أثر في حياة التصوف وتطوره على مر الأجيال... فلم يكد العصر العباسي الثاني ينتهي حتى تأصلت في التصوف المعرفة الإلهية ومحبة الله، كما تأصلت فكرة أن الصوفية أولياء الله[١٧].

استغلال التصوف:

بعد ما شاع التصوف وكثرت جماهيره بعد شيوع المواريث الإشراقية الفارسية في ثقافة المسلمين، عرف هذا الفن لوناً متميزاً من الغناء وهو الذي أسموه (السماع) وهو عنوان

فصل من كتاب حامد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ = ١٠٥٨-١١١١م) المشهور (إحياء علوم الدين) ثم شاع مصطلحه (السماع) في الكتابات التي مثلت أدبيات الصراع بين المتصوفة والفقهاء بهذا الميدان منذ ذلك التاريخ[١٨]. وعندها ظهر تأثير الحلاج في المغرب ثم في مصر ثم في اليمن ومنها حضرموت.

ولما وضح التصوف في الحياة الإسلامية، وشكل تأثيراً في اجتذاب النفوس والتأثير فيها «فقد استغل العلويون هذه الناحية لمواجهة العباسيين، وسرعان ما ظهرت آثار هذا الاستغلال، فأصبحت تعاليم الصوفية قائمة على تعاليم الشيعة وترتيباتهم»[١٩]. وقد فطن العلاقة ابن خلدون لهذا القصد إذ يقول في المقدمة: «ثم حدث عند المتأخرين من الصوفية الكلام في الكشف وما وراء الحس، وظهر من كثير منهم القول بالحلول والوحدة، فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة وحلول الإلهية فيهم، وظهر منهم أيضاً القول بالقطب والإبدال وكأنه يحاكي مذهب الرافضة في الإمام والنقباء وأشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا في الديانة بمذهبهم حتى جعلوا مستند طريقتهم في لبس الخرقة أن علياً رضي الله عنه ألبسها الحسن البصري، وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة، واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم ولا يعلم هذا عن علي من وجه صحيح...»[٢٠].

ويسترسل الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف في كتابه (السيد البدوي ودولة الدراويش في مصر) قائلاً: «هكذا اصطبغ التصوف بمقاصد الشيعة وبتعاليمهم، وهكذا صار المتصوفة أداة لبثّ الدعوة للعلويين تحت هذا الستار فكانوا يحدثون الناس أحاديث الزهد والورع... ويفيضون في ذكر مناقب آل البيت وفضائل الانتساب إليهم. وقد كان لهذا أثره في تكوين العصبيات للعلويين. كما كان له أثر في توجيه التصوف هذه الوجهة، حتى

تضاءل آخر الأمر فلم يعد إلا سرداً لمناقب آل البيت وخرقة تربط المتصوف بالانتساب إليهم.

ومهما يكن من شيء فإن العلويين قد وصلوا إلى مقاصدهم في الملك والحكم من هذا الطريق. فعلى أساس التصوف قامت دولة المرابطين والموحدين والأدارسة في المغرب ثم الدولة الفاطمية بالمغرب وبمصر والشام. فلما ذهبت ريح تلك الدولة وانتهى أمر الفاطميين في مصر وغلب على ملك المسلمين الأعاجم وأوزاع الأمم الأخرى، عاد العلويون وأنصارهم يعتمدون على التصوف في تربية العصبيات وإثارة النفوس لطلب المجد الذاهب، والحرص على أن تكون خلافة المسلمين علوية قرشية، فكان أبو مدين الغوث في المغرب يبث هذه التعاليم تحت ستار التصوف، ويربي عليها المريدين فيرسلهم بها إلى الآفاق والأمصار[٢١].

وكان أبو الغوث قد (استغل الألحان على نطاق واسع وصار يؤدي الموشحات الصوفية على إيقاعات ومقامات معينة)[٢٢] وقد شجع تلاميذه على فعل ذلك. فالشاذلي (٥٩١-٦٥٦هـ = ١١٩٥-١٢٥٨م) وهو علي بن عبد الله... بن هرمز الشاذلي، هو منشئ الطريقة الشاذلية وكان ضريراً، انتسب إلى الأدارسة أصحاب المغرب، أخبره بذلك أحد شيوخه عن طريق (المكاشفة)، قال الذهبي: نسب مجهول لا يصح ولا يثبت، كان أولى به تركه، وتوفي في صحراء عيذاب بمصر. قال خليفته ومريده أبو العباس المرسي: ومن أتباعه أبو بكر بن عبد الله العيدروس العدني وشيخ الأزهر عبد الحليم محمود.

ولعل أوضح طريقة لذكر اهتمام المتصوفة بالغناء تنظيراً وممارسة أبا الحسن علي النميري المعروف بالششتري المتوفى قرب دمياط (٦٦٨هـ = ١١٦٩م) فلقد قدم هذا الصوفي الشهير والوشاح الأندلسي إلى المغرب أواسط القرن السابع، فلقي ابن سبعين وأراد أن يتتلمذ

عليه، فاشترط عليه شروطاً كان من بينها أن يأخذ بندير (إطار/ دف) ويدخل السوق، وبالفعل فقد امتثل الششتري لتوجيهات أستاذه وراح يتجول في أسواق المدن المغربية، قبل أن يشد الرحال إلى الديار المشرقية. وكان خلال تجواله في الأسواق ينشد أزجال أستاذه وأزجالاً أخرى نظمها بنفسه، ومما يدل على تحلية هذه الأشعار بالألحان الموسيقية قوله في مطلع أحدى أزجاله:

شـــويخ مـــن أرض مكنـــاس وســـط الأســـواق يغنـــي
إش عليـــا مـــن النـــاس وأيـــش عـــلى النـــاس منـــي

الغناء في آخر أيام الأباضية:

لقد تطور الأمر لدى كل الفرق الصوفية فيما يعرف لديهم بحلقات الذكر أو الموالد وغير ذلك في المساجد والأضرحة وغيرها، وتغنوا بالأشعار واستعملوا الآلات الموسيقية المتنوعة وهي في المغرب أوضح. وفي هذا المقام يحسن بنا أن نذكر أبا عبد الله محمد العبدري الفاسي المشهور بابن الحاج المتوفى بالقاهرة عام ٩٣٧ هـ، فقد ألف كتاباً طار ذكره في الأمصار هو كتاب (المدخل) وعقد فيه فصلاً خاصاً بالسماع، والكتاب كما وصفه ابن فرحون (كتاب...، جمع فيه علماً غزيراً، والاهتمام بالوقوف عليه متعين، ويجب على من ليس له في العلم قدم راسخ أن يهتم بالوقوف عليه). أما موضوع الفصل الخامس الخاص بالسماع فهو الإنكار على ما أحدثه من الأهواء التي تميل إليها النفس من البدع والغناء بالآلات المحرمة كالعود والطنبور عند عمل المولد الشريف[٢٣].

وهذا عينه ما أخبرنا به الإمام الأباضي أبو إسحاق الهمداني، ونظن أنه في نهاية إمارته وانكسار قومه أمام الدولة الصليحية، إذ تشير أبيات من قصائده التي يحتويها ديوانه (السيف النقاد) بأن حروباً طاحنة قد حدثت مع الصليحي وجنوده ومع الذين خذلوه بتعاونهم مع العدو أو بوقوفهم على الحياد كما يخيل لهم. ولهذا نجد في أشعاره الحزن والأسى بل واليأس، ولكننا في سبيل ذكر الأبيات التي وردت في قصائده وهي التي أشارت إلى ما نحن بسبيله من التغني داخل المسجد، فهو كأباضي يرفض الغناء من أساسه وفي أي مكان فما بالك بالمسجد.

فمن قصيدة خاطب بها الخليل بن شاذان إمام عمان الأباضي الذي تولى الإمامة بعد الإمام راشد بن سعيد المتوفى عام ٤٤٥هـ وبقي إماماً حتى عام ٤٧٤هـ حيث توفي وقبر بمدينة نزوى، قال فيها:

يا خير خل ما بقى من بعدنا أضحى لدى المحراب ضرب طبول[٢٤]

وفي قصيدة أخرى يطلب النجدة من أحد أعوانه، وهو أبو الحملات فارس بن إبراهيم الوائلي، ويذكره بالحالة التي آلت إليها مساجد الله، فقال:

أضحت بقاع الراكعين مزاهرا[٢٥]

ووجه قصيدة أخرى لأحد المناصرين له، وهو أبو الفضل عباس بن معن بن حوشب الكندي سلطان آل عامر وأرضه حضرموت، وبنو عامر من كندة فقال:

أبا الفضل مات الدين وانطمس الهدى وصارت بيوت الله مأوى المزامر[٢٦]

ومن قصيدة أخرى يذكر عبد العزيز اليعمري وهو من الشخصيات التي لم نستطع التعرف عليها، غير أنه من آل حيوة الذين كان لهم نشاط حربي مع الإمام أبو إسحاق حسبما يقول:

ولا الدين لدى عبد العزيز لهم في صحن مسجده القينات والزجل[٢٧]

إن الذين مارسوا هذا الغناء أو قل السماع – خاصة هذا اللون الذي يقدم داخل المسجد - هم الذين جاءوا مع استيلاء الدولة الصليحية، وهم كما نعتقد جنودها وما يصاحبهم من سياسيين ودعاة المذهب وتجار الحروب والمتكسبين والفضوليين. ولا شك عندنا أن الدولة الفاطمية قد انتهت على أيدي الأيوبيين في مصر وهم أيضاً الذين كنسوا وإلى الأبد الدولة الصليحية، ثم استولت على حضرموت. لكن الذين لهم صلة بالصليحيين سوف يتوارون في مناطق نائية أو سيستكينون برهة من الزمن أو سيندسون بين الأهالي لحين الفرصة المناسبة أو سيتخذون طريقاً آخر.

الأيوبيون:

في سنة ٥٧٥هـ غزا قائد الأيوبيين في اليمن حضرموت، وقوض أركان السلطات الحضرمية الثلاث، وهي التي نشأت عندما ضعف شأن الصليحيين لكن الحضارم انتفضوا ضد الأيوبيين في العام الذي يليه، فعاد الأيوبيون لإخضاعهم، وفي النهاية اضطروا لإبقاء الحكام المحليين نواباً عنهم... ثم ما لبث الأيوبيون أن دبّ الوهن فيهم فقامت قبيلة نهد وطردتهم من حضرموت وحلت محلهم في الداخل والساحل، أما ابن مهدي قائد الأيوبيين فكان بين القتلى، وكان ذلك سنة ٦٢٢هـ[٢٨].

وعلى الرغم من تعصب الدولة الأيوبية للمذهب السني فإنهم لم يروا بأساً من إنشاء العمائر التي عرفت باسم الخانقاوات، وهي التي انتشرت في القرن الرابع الهجري، والتي جُعلت لإيواء الصوفية المنقطعين للعبادة.

فمنذ أن تولى صلاح الدين عمل هذه الديار برسم الفقراء الصوفية الواردين من خارج البلاد، ووقفها عليهم في سنة ٥٦٧هـ ورتب لهم معاشهم.

وإذا كان الشيعة هم أول من أنشأ العمائر الثقافية وهم أول من أطلق عليها اسم المدرسة، فإن الغرض الأساسي من إنشائها هو تدريس ونشر المذهب الشيعي وكان ذلك في القرن الرابع الهجري.

فلما جاء صلاح الدين إلى مصر نشر هذه المنشآت الثقافية وجعلها عامة، وكانت خاصة، غرضه الأول هو القضاء على المذهب الشيعي مذهب الفواطم وذلك بنشر المذهب السني عن طريق هذه المدارس.

ومن العمائر التي انتشرت في العصر الأيوبي الأضرحة والتي اتخذت شكلاً معيناً، وهو مربع مغطى بقبة، على أن إقامة الأضرحة ليست حدثاً في العصر الأيوبي، فقد أقامت الدولة الفاطمية الكثير من الأضرحة وقصرتها على أهل البيت وكبار رجال الدولة من الشيعة، فرأت الدولة الأيوبية أن تحول الأنظار عن أضرحة الشيعة وذلك ببناء أضرحة لأئمة السنة، فأقامت أم السلطان قبة الإمام الشافعي[٢٩].

ومن الأضرحة الهامة التي أقيمت في العصر الأيوبي، ضريح السادات الثعالبة والخلفاء العباسيين وضريح شجرة الدر، ثم الصالح نجم الدين أيوب الذي يمكن اعتباره

ضريح ألحق بمدرسة، ثم أصبحت القاعدة بعد ذلك إلحاق القباب بالمدارس والمساجد والخانقاوات.

ونحن إذا أمعنا النظر في هذه الأعمال وغيرها وجدنا أن هذه الدولة لم تشهد الاستقرار في اليمن كله وبالأخص في حضرموت، لكنها ساهمت بقدر كبير في انتشار التصوف، وليس أدل على ذلك من أنها أول من أدخل بعض فصول كتاب (الإحياء) للغزالي.

مبعوث أبي الغوث:

في هذه الفترة عاش الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي، فقد وصله الشيخ عبد الله صالح المغربي بتكليف من الشيخ عبد الرحمن الحضرمي المقعد، وهو مبعوث شيخ الشيوخ أبو الغوث التلمساني حيث كان محملاً رسالة أبي الغوث: «إن لنا فيها أصحاب، سر إليهم وخذ عليهم عقد التحكيم ولبس الخرقة»، فمن هم هؤلاء الأصحاب؟.

والفقيه المقدم (٥٧٤-٦٥٣هـ = ١١٧٨-١٢٥٦م) هو الشيخ محمد صاحب مرباط إلى آخر النسب، ولد بمدينة تريم وتوفي بها ليلة الأحد ٣٠ ذي الحجة ٦٥٣هـ الموافق ٣٠يناير ١٢٥٦م. وكان يدرس على الفقيه علي بن أحمد بامروان الكندي عندما وافاه مندوب التلمساني، فأعلن الفقيه المقدم تصوفه، وذلك بأن (لبس لباس الصوفية وأعلن موقفه على الجميع وكسر السيف)، ويعلق أبو بكر العدني المشهور في كتاب أفرده في ترجمة الفقيه المقدم، بقوله: «كان إعلان هذا الموقف بداية جديدة لمدى قوة آل البيت النبوي على اتخاذ موقفهم في

كل ما يرونه مناسباً لمصلحتهم الدينية والدنيوية، وعدم انصياعهم للواقع ولا الذوبان فيه، ولو كان هذا الواقع يحمل أفضل الوسائل الفكرية في وجهة نظر غيرهم، وهذا ما يؤكد حقيقة قيادتهم للأمة... اتخذ القرار لينفصل مع أهله وبني عمومته عن منهجهم الفكري بأدب ولطف»[٣٠].

ويضيف المشهور العدني بعد أن أشار إلى الحوار الذي أجراه الشيخ عبد الله المغربي مع الفقيه، فقال: «وأخبره بما أتى لأجله وأعلمه بجميع أمره، فرغب الأستاذ بالانحياز إلى جنابه والانتظام في سلك أصحابه...» ومن هذا الحوار والتعليل المثبت بنصه في كتب التراجم، يستفاد زهد الفقيه المقدم في كافة مظاهر الحياة الفكرية والسياسية القائمة في الواقع، وشعوره منذ مجيء المبعوث المغربي بلحظة الفرج لإبراز ما كان يعتلج في صدره من تحويل أسرته وجماعته وأبنائه من حالة فكرية واجتماعية إلى حالة أخرى هي أمله ورغبته منذ أمد بعيد لم ينقصها غير وجود السند الذي يناصره ويدفع معه الرغبة من الصدر إلى حيز الواقع، لقد كان يوم التحول موقفاً عظيماً وحدثاً جسيماً[٣١].

وليس علينا الاستمرار في ذلك، رغم أنه من المهم أن نعرف أن هذه الفئة استلمت فكرة أبي الغوث التلمساني.

السماع في حضرموت:

ولكن ماذا بشأن السماع الذي يهتم به هذا البحث، بعدما رأينا أن الدولة الأيوبية قبلت التصوف بكل شؤونه وممارساته؟

في الحقيقة أن كل ما بين يدي لا يفيد بأن الفقيه المقدم قد أقام السماع، لكن المؤرخ عبد الله محمد باحسن يقول في تاريخه: «إن الشيخ سعد الدين الظفاري شيخ الفقيه المقدم»، وكان سعد هذا قد أقام السماع[٣٢]. ولا يرى المؤرخ الشاطري أن الفن بدع في متصوفة حضرموت «فإن الصوفية في كل مكان في العراق وفي مصر والمغرب والحجاز يمزجون التصوف بالفن ويتذوقون المعاني الغزلية ويفسرون الألفاظ ويطبقونها على المحبة الإلهية... وقد بلغ الأمر ببعض شيوخ التصوف بحضرموت أن يدور بالسماع»[٣٣]. وهو يقصد كما جاء في هامش نفس الصفحة (أبو بكر السكران بن عبد الرحمن السقاف) على أن فكرة (السكر) هي التي أدخلها البسطامي (ت:٢٦١هـ) إلى جانب فكرة العشق الإلهي، كما يشير إلى ذلك الدكتور شوقي ضيف[٣٤].

ثم إننا لم نستطع معرفة ما كان يتغنى به متصوفة حضرموت ـ خاصة الرعيل الأول ـ إلا على سبيل الظن، لكن الأمور تقاس بمثيلاتها «فمنذ أواخر القرن الثالث الهجري تلقانا ظاهرة جديدة في بيئات المتصوفة، فقد كان السابقون منهم لا ينظمون الشعر بل يكتفون بإنشاد ما حفظوه من أشعار المحبين وهم في أثناء ذلك يتواجدون وجداً لا يشبهه وجد، أما منذ أبي الحسين النوري المتوفى سنة ٢٩٥هـ، فإن صوفيين كثيرين ينظمون الشعر معبرين به عن التياع قلوبهم في الحب آملين في الشهود مستعطفين متضرعين مصورين كيف يستأثر حبهم لربهم بأفئدتهم استئثاراً مطلقاً...»[٣٥].

ويظهر أن الأمر تكرر عندنا في حضرموت فقد اعتمد من هم فيها على شعراء الصوفية السابقين لهم في شتى الأقطار، ومن هذه القصائد التي رددها المتصوفة كثيراً ثم انتقلت إلى دائرة الطرب. ولنضرب أمثلة على ذلك:

قصيدة الحسين بن منصور الحلاج، وقد استبدلت بعض ألفاظها وأضيف إليها بعض الأبيات:

يا من فتنت به يا أحسن الناس يا من محبته تاجاً على رأسي

ومطلع القصيدة لا يرد بالديوان وينسب بيتان منها لأبي نواس.

قصائد أبي الغوث التلمساني وقد سبق الحديث عنه، ونكتفي بذكر مطالعها، فالقصائد مشهورات:

ـ أحب لقاء الأحباب في كل لحظة لأن لقاء الأحباب فيه منافع
ـ تملكتموا عقلي وطرفي ومسمعي وروحي وأحشائي وكلي بأجمعي
ـ متى يا كرام الحي عيني تراكمُ وأسمع من تلك الديار نداكمُ

وقصيدة الششتري، الحسن بن علي النميري، وقد سبق الحديث عنه وهو من أوثق علماء أواخر العهد الموحدي وأوائل العهد المريني صلة بالموسيقى وأكثرهم اهتماماً بالغناء تنظيراً وممارسة:

شويخ من أرض مكناس وسط الأسواق يغني

وقصيدة عمر بن الفارض (ت:٦٣٢هـ = ١٢٣٥م):

غيري على السلوان قادر وسواي في العشاق غادر

«فإذا كانت القصيدة لابن الفارض كما تعتقد بعض الجهات اليمنية، فإن ما ورد فيها من الغزل ليس في الحقيقة إلا غزلاً صوفياً... أما إذا نظرنا إلى هذه القصيدة على أنها لشاعر

غير صوفي هو البهاء زهير لجاز لنا القول بأن غزلها الجنسي هو الذي حببها إلى قلوب المشتغلين بتأليف الألحان»، ذلك ما يقوله الدكتور محمد عبده غانم في كتابه (شعر الغناء الصنعاني)[٣٦].

وهذا التعليل يمكننا أن نطبقه على قصيدة محيي الدين بن عربي (ت:٦٣٨هـ = ١٢٤٠م) ومطلعها:

مرضي من مريضة الأجفان علاني بذكرها علاني

ومن قصائد المتصوفة الأوائل الذين ردد صوفية حضرموت قصائدهم ملحنة بموسيقى وضربات إيقاعية، قصائد الشاعر الصوفي عبد الغني بن إسماعيل النابلسي (١٠٥٠-١١٤٣هـ = ١٦٤١-١٧٣١م) وهو الفقيه الحنفي الدمشقي الصوفي الشاعر الرحالة العالم بالدين والأدب وهو مؤلف مكثر ومن كتبه (جواهر النصوص في شرح فصوص الحكم لابن عربي) وكتاب (إيضاح الدلالات في سماع الآلات) وغيرها. ومن قصائده المرددة والتي كما أشرنا انتقلت إلى دائرة الطرب بعد تعديل وتبديل وأحياناً إضافات: (١):

عيني لغير جمالكم لا تنظرُ وسواكم في خاطري لا يخطرُ
وجميع فكري فيكمو دون الورى وعلى محبتكم أموت وأحشرُ
يا سادتي قلبي بكم متعلق أبداً وعنكم ساعة لا أصبرُ
إن نمت كنتم في المنام معي وإن في يقضتي قد كنت فيكم أبصرُ
لا فرق ما بيني وبين خيالكم إن غاب غبتم وإن حضرتم أحضرُ
اثنان نحن وفي الحقيقة واحد لكن أنا الأدنى وأنت الأكبرُ

إلى آخرها وقد تعمدت كتابة القصيدة من ديوانه وعندها سيتمكن الآخرون من معرفة التعديل والإضافة عند أهل الطرب.

(٢) وقصيدته الثانية هي التي يقول النابلسي فيها:

أرسل الله إلينا بالكرامات العظام
أحمد المختار طه سيد الرسل الكرام
فتهنوا يا رفاقي نلتموا كل المرام
والذي جاءكم يد عو إلى دار السلام
قالت أقمار الدياجي قل لأرباب الغرام
كل من يعشق محمد ينبغي أن لا ينام

هكذا في الديوان، وعند أهل الطرب:

إن جبرتم كسر قلبي فأنتم أهل الذمام
وإن هجرتم يا حبايب فعلى الدنيا السلام
قالت أقمار الدياجي قل لأرباب الغرام
كل من يعشق محباً ينبغي أن لا ينام

لكن في القرن التاسع وما بعده ظهر شعراء صوفيون محليون يقرضون الشعر بنوعيه الفصيح والدارج (العامي) ومنهم:

- عبد الرحيم علي الهاجري (البرعي) توفي عام ٨٠٣هـ.
- عمر المحضار بن عبد الرحمن السقاف توفي عام ٨٣٢هـ.

ـ سعد بن علي مدحج (السويني) توفي عام ٨٥٧هـ.

ـ علي بن أبي بكر السكران توفي عام ٨٩٥هـ.

ـ أبو بكر بن عبد الله العيدروس (العدني) توفي عام ٩١٤هـ.

ـ محمد علي السودي توفي ٩٣٢هـ.

ـ عمر بن عبد الله بامخرمة توفي عام ٩٣٢هـ.

ـ سعيد سالم الشواف توفي عام ٩٩٠هـ.

ـ أبو بكر بن سالم العلوي توفي عام ٩٩٢هـ.

وكان شعر البعض منهم جيداً والبعض الآخر (له نظم ليس بشيء)[٣٧].

فن التغني بالمدائح النبوية:

يذكر أحمد الناصري في كتابه (الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى) عن فن التغني بالمديح النبوي بقوله: «أنه ظهر على عهد الموحدين (٥١٥- ٦٦٨هـ = ١١٢١-١٢٦٩م) نوع جديد من الغناء بالسماع، شاع أواخر العهد وتولع به الخلفاء مثل المرتضى من أواخرهم»[٣٨]. ومديح الرسول قديم منذ ابن دريد في مطلع القرن الرابع الهجري.

وابن دريد (٢٢٣-٣٢١ = ٨٣٨-٩٣٣م) محمد بن الحسن بن دريد الأزدي من أزد عمان من قحطان، أحد أئمة اللغة وهو صاحب (المقصورة الدريدية ـ خ) ومن كتبه (الاشتقاق ـ ط) ولد في البصرة وتوفي في بغداد.

وقصيدة ابن دريد هذه لم تنل حظوة قصيدة البوصيري أكبر مداح للرسول ﷺ ، الذي زار المدينة، وفي الرسولﷺ نظم همزيته في نحو أربعمائة وخمسين بيتاً سماها (أم القرى في مدح خير الورى)، وكذلك ميميته المشهورة باسم (البردة) وقد تناقلها الناس في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه إعجاباً وافتناناً.

والبوصيري (٦٠٨ – ٦٩٦هـ =١٢١٢ – ١٢٩٦م) محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري، شاعر حسن الديباجة مليح المغاني، نسبته من بوصير من أعمال بني سويف بمصر وأمه منها، وأصله من المغرب من قلعة حماد من قبيلة يعرفون ببني حبنون، والقلعة عاصمة الإمارة الحمادية التي أنشأها حماد بن بلكين الصنهاجي الذي أنشأ عاصمته (القلعة) عام ٣٩٨هـ واستمرت الإمارة حتى عهد يحيى بن عبد العزيز تاسع أمرائها سنة ٥١٥هـ.

والبوصيري مولده في بهشيم من أعمال البهنساوية ووفاته بالإسكندرية، له (ديوان شعر ـ ط) وأشهر شعره البردة ومطلعها (أمن تذكر جيران بذي سلم) وقد شرحها وعارضها كثيرون، والهمزية مطلعها (كيف ترقى رقيك الأنبياء) وعارض (بانت سعاد) بقصيدة: (إلى متى أنت باللذات مشغول).

الاحتفال بالمولد:

ويبدو أن عصر الموحدين كان عصر إبداع وابتداع فقد استحدث بالمغرب فن جديد هو التغني (بالمولودية) وهو إنشاء بعض فصول السيرة النبوية التي تتعلق بظروف ولادة

النبي ﷺ ويرجع أصل ذلك إلى ما رواه الأستاذ عبد الله مكنون في كتابه (النبوغ المغربي) إذ يقول: «استحدثت أسرة العزفيين التي كان رجالها من أعلام سبتة ورؤساؤها عادة الاحتفال بالمولد النبوي على عهد الموحدين وقد ألف كبيرهم العلامة أبو العباس أحمد بن محمد المتوفى سنة ٦٣٩هـ على عهد المرتضى كتاب (الدر المنظم في مولد النبي المعظم) الذي أكمله فيما بعد ولده الرئيس أبو القاسم، وفي مقدمة الكتاب يشير أبو العباس إلى سبب إحداثهم ذلك، ويقارن بين احتفال النصارى بعيد الميلاد المسيحي ومشاركة المسلمين لهم في ذلك وإهمالهم مولد النبي ﷺ، وهو مع إقراره بأن هذا العمل بدعة لم تكن على عهد السلف الصالح رضوان الله عليهم، فإنه يجعله من البدع المستحسنة»[٣٩].

والعزفيون بطن من لخم والنسبة إليهم (عَزَفي) والمشهور أنهم من سلالة النعمان بن المنذر، منهم أمير سبتة، والعزفيون والجداميون من كهلان القحطانية اليمانية.

هذا ما نقله لنا الأستاذ عبد العزيز بن عبد الجليل في كتابه: (مدخل إلى تاريخ الموسيقى المغربية) ويضيف: «ولعل تبني أعلام سبتة العزفيين للاحتفال بالمولد النبوي، أن يكون تابعاً من طبيعة المغاربة الذين شبوا على التعلق بالحضرة النبوية، وأن يكون مؤشراً لرفض الآراء المذهبية التي ابتدعها ملوك الموحدين الأوائل وسادت في ظلها النزعة المهدوية التي كانت تزعم العصمة لغير الأنبياء»[٤٠].

ومهما يكن فقد انفرجت الأزمة في عهد الخليفة الموحدي المرتضى الذي حكم فترة ما بين (٦٤٦هـ-٦٦٥هـ) والذي أصبح (يقوم بليلة المولد خير قيام ويفيض فيها الخير والإنعام) ووضعت الأسس لإقرار ما ابتدعه العزفيون من الاحتفال بالمولد النبوي وتهيأت أسبابه... ويصبح معها فن التغني بالمدائح النبوية من أبرز صنوف الموسيقى المغربية.

القيام عند ذكر الرسول ﷺ:

وبهذه المناسبة نشير إلى أحد شعراء (المولوديات) في هذا العصر، وهو أحمد الصباغ الجدامي الأندلسي الذي عاصر الخليفة المرتضى، فقد كان شاعراً مجيداً، أنشد في مناسبة المولد النبوي قصائد رائعة، منها السينية التي ما يزال أحد أبياتها يردد حتى اليوم بمثابة لازمة يرجعها المسمعون في أمداحهم وهو قوله:

وقوفاً على الأقدام في حق سيد تعظمه الأملاك والجن والأنس

وعادة ما ينشد المسمعون هذا البيت بعد الانتهاء من سرد قصة المولد النبوي ثم تتلوه الصلاة على النبي العربي[٤١]. هذا ما أضافه ابن عبد الجليل في كتابه المشار إليه، ويضيف في هامش الصفحة قائلاً: «وقد نسب أبو عبد الله محمد العابد الفاسي في كتابه (روض الأمنية والأماني في مطلوبية القيام عند ذكر ولادة المصطفى ﷺ للتعظيم والتهاني) نقلاً عن سيدي محمد بن عبد السلام بنائي شارح (الاكتفاء) ببيت (وقوفاً على الأقدام...) إلى ابن رشد البغدادي المتوفى سنة ٦٦٣هـ»، ونحن نلاحظ الاختلاف الكبير فيما يشيعه البعض هنا في حضرموت، عند الوقوف في منتصف الاحتفال بالمولد إلى حضور النبي ﷺ.

ويشاع في محيطنا عن تاريخ الاحتفال بهذه المناسبة ما جاء عند العلامة جلال الدين السيوطي في بحثه (حسن المقصد في عمل المولد) بأن الملك المظفر صاحب أربل، أبو سعيد كوكبري بن زيد الدين علي بكتكين، كان يعمل المولد الشريف في ربيع الأول، ويحتفل به احتفالاً هائلاً، وقد صنف له الشيخ أبو الخطاب بن دحية مجلداً في المولد النبوي أسماه (التنوير في مولد البشير النذير) فأجازه على ذلك بألف دينار، وقد طالت مدته في الملك حتى مات وهو محاصر للفرنج بمدينة عكا سنة ٦٣٠هـ. قال ابن خلكان في ترجمة الحافظ أبي

الخطاب بن دحية: «كان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء، قدم من المغرب فدخل الشام والعراق واجتاز بأربل سنة ٦٠٤هـ، فوجد ملكها مظفر الدين يعتني بالمولد النبوي، فعمل له كتاب (التنوير...) وقرأه عليه بنفسه فأجازه بألف دينار. قال: وقد سمعناه على السلطان في ستة مجالس في سنة خمس وعشرين وستمائة»[٤٢].

ومن هذا يتضح لنا أن ابن دحية قد نقل من المغرب ما ابتدعه العزفيون أصحاب سبتة.

الاحتفال بالمولد في حضرموت:

ومع اعتقادنا أن المولد إنما جاءنا عن طريق الدولة الفاطمية ولم يكن نقلاً لما جرى في الموصل عند سلطانها كوكبري، فإن هذا الاحتفال تأخر كثيراً وأن الطريقة التي نراها بيننا اليوم ربما ابتدأت في القرن الثاني عشر الهجري وربما بعد ذلك، ولدينا ما يثبت هذا فقد ذكر الشلي في (عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر) أنه «في سنة ١٠٧٠هـ استولى إمام الزيدية إسماعيل بن القاسم على حضرموت كلها وأمرهم أن يزيدوا في الأذان (حي على خير العمل) وترك الترضي على الشيخين أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ومنع الدفوف واليراع في راتب السقاف»[٤٣].

وقد كرر ابن عبيد الله السقاف في كتابه (بضائع التابوت ـ خ) ما جاء عند الشلي ولم يزد على ما ذكره شيئاً، وفي أنفسنا شيئاً من قوله: «وترك الترضي على الشيخين» ففي ديوان ابن عبيد الله قسم بعنوان الإماميات وهو الذي أفرد له الشاعر ديواناً مستقلاً جاء بعنوان

(كتاب الإماميات) وقد طبع على نفقة أحد الوجهاء بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر دون تاريخ، واحتوى هذا على القصائد المتبادلة بين مولانا أمير المؤمنين يحيى بن حميد الدين ملك اليمن وبين السيد العلامة عبد الرحمن بن عبيد الله، وقد أعيد نشر القصائد بالديوان المطبوع، ومن ذلك قصيدة كتبها عندما كان بسنغافورة سنة ١٣٣٠هـ وشفع بها رسالة تشيد بالإمام بإمضاء السادة محمد بن عقيل ومحمد أحمد المحضار ومحمد الحييد، قال ابن عبيد الله في تلك القصيدة:

علنا نسب عداكم فعليهم لعن الإله على الدوام مكررا
لا ينطوي قلب على بغضائكم إلا وقد شنئ النبي الأطهرا
كيف النجاة لخصمكم إن جيتم يوم الحساب مع البتول المحشرا

وقد كتب أمير المؤمنين الإمام يحيى قصيدة جواباً وأرسلها لابن عبيد الله في ٢٩جمادى الأولى سنة ١٣٣٠هـ ومنها قوله:

والسنة الغراء يقفوا إثرها أكرم بسنة خير من وطئ الثرى
لا يرتضي نحل الروافض مذهباً وكذاك لم يك مثل جهم مجبرا

والروافض طائفة من الشيعة رفضوا زيد بن علي وانفضوا عنه حين أبى عليهم التبرؤ من الشيخين[٤٤]، وعلى ذلك فإن عبارة (ترك الترضي على الشيخين) غير مستساغة.

ثم إن المؤرخ محمد بن هشام ذكر في كتابه (تاريخ الدولة الكثيرية) قائلاً: «ومنعت الزيدية راتب الحداد ونودي بأن يزاد في الأذان حي على خير العمل»[٤٥].

وهو في الحقيقة خطأ وقع فيه إذ أن عبد الله بن علوي الحداد من مواليد ١٠٤٤هـ ونحن نلاحظ عدم ذكر الاحتفال بالمولد في تلك الفترة ولم يأت خبر بمنعه ولا الإبقاء عليه، مما يدل على عدم ممارسة الاحتفال بالمولد إلا إذا كان بطريقة غير التي نعرفها من التغني مع القصة بالمدائح النبوية والابتهالات المصحوبة بموسيقى وآلات موسيقية، علاوة على أن النفوذ الإمامي استمر بحضرموت حتى عام ١٠٩٣هـ حيث أخرج السلطان علي بن بدر عامل الإمام الجديد السلطان حسن بن عبد الله الكثيري عامل الإمام السابق في أول ذي القعدة من بحر تلك السنة، ومن الشهر المذكور لم ينفذ للإمام أمر ولا عزل ولا تولية في حضرموت وظفار، غير الخطبة له في جميع الممالك، فإذا وصل رسول الإمام أقاموا به وأكرموه ولا ينفذون أمره لا في عزل ولا تولية، وتوفي السلطان علي بن بدر الكثيري بالشحر سنة ١١٠٧هـ.

وقد اقتصر مبتدعو الاحتفال بالمولد النبوي في حضرموت على مؤلفات من سبقهم في تأليف مختصرات قصيرة لقصة مولده ﷺ ومنهم البرزنجي[٤٦] والديبعي[٤٧]، ونعتقد أن أول من كتب قصة المولد من أهل حضرموت بهذه الطريقة هو العلامة محمد عمر بحرق المتوفى بالهند عام ٩٣٠هـ والذي كتبه في إحدى عشر ورقة بعنوان (مولد سيد الأولين والآخرين) ثم كتب شيخ بن عبد الله العيدروس المتوفى بالهند ٩٩٠هـ (المولد النبوي).

الحضرة:

سبق أن قلنا أن شيوع التصوف وكثرة جماهيره سبباً في استغلال العلويين له، لكن سرعان ما ظهر هذا الاستغلال الذي جعل تعاليم الصوفية قائمة على تعاليم الشيعة

وترتيباتهم، وأشرنا إلى ما كتبه العلامة ابن خلدون في مقدمته تحت عنوان (علم التصوف) ولا بأس من تكرار ما نقلناه من كتاب محمد عبد اللطيف (السيد البدوي ودولة الدراويش) وهو ما نصه: «هكذا اصطبغ التصوف بمقاصد الشيعة وبتعاليمهم، وهكذا صار المتصوفة أداة لبث الدعوة للعلويين تحت هذا الستار، فكانوا يحدثون الناس أحاديث الزهد والورع ويفيضون في ذكر مناقب آل البيت وفضائل الانتساب إليهم، ولقد كان لهذا أثره في تكوين العصبيات للعلويين، كما كان له أثره في توجيه التصوف هذه الوجهة حتى تضاءل آخر الأمر فلم يعد إلا سرداً لمناقب آل البيت وخرقة تربط المتصوفة بالانتساب إليهم...» إلى آخر ما نقلناه سابقاً، والملاحظ أنه لابد من ذكر المناقب، كيف لا والمذهب الشيعي ومعه التصوف يؤهل أفراد آل البيت إلى سدة الحكم وإلى خلافة المسلمين لتكون علوية قرشية وإلى قيادتهم الدينية، فلابد من ذكر المناقب وتكرارها.

«وقد اعتد الحضرميون بالسماع وأنشأوا له المجالس التي تسمى (حضرات) وحضرها أكابر شيوخهم كالشيخ عبد الرحمن بن محمد السقاف (ت ٨١٨هـ) وهو كما قال الشلي عن السماع في ترجمته في كتابه المشرع الروي (أحبه وكان يعمله في مسجده وكان يرد عليه حال السماع واردات، وإذا ورد عليه حال تعظم صورته وتدخل الحاضرين هيبة عظيمة منه وربما دار وتواجد فيه)[٤٨] وعُرف بعضهم بطريقتهم في السماع كالشيخ أبي بكر بن عبد الرحمن (ت٨٢١هـ)، وقد ترجمه أيضاً الشلّي في المشرع وقال: «إذا ظهر عليه الحال منعه النوم ليلاً ونهاراً ويدور بالسماع من العصر إلى المغرب وهو كالسكران لا يشعر بشيء»[٤٩].

و(حضرة) كلمة يستعملها الصوفية على اتساع في معناها مرادفة لكلمة (حضور) أي المثول في حضرة الله.

وابن عربي وهو بسبيل وضع مذهبه القائم على وحدة الوجود يستعمل كلمة (حضرة) في معنى أكثر اتساعاً. وقد أورد ابن خلدون الحضرة في المقدمة، ويطلق الدراويش على الحفلات التي يحيونها بانتظام كل يوم من الأيام اسم (الحضرات)، وتستعمل كلمة (حضرة) أيضاً على أنها تعبير يدل على التشريف والإجلال في التوجه لله والأولياء والأنبياء وأي شخص مثقف. وتستعمل كلمة (حضرة) وبالتركية (حضرة) لقباً يدل على الاحترام[٥٠].

ويلاحظ أن المسألة متشابكة جداً بل ويأخذ بعضها بتلابيب البعض الآخر، فأن من مدائح العلويين ذكر مناقبهم ومنهم من أوغل في المحظور وادعى ما ابتدعته الدولة المهدية وساد في ظلها النزعة المهدوية وقد سبق الإشارة إليه، وهي التي تزعم العصمة لغير الأنبياء. ونحن نعتقد أنها سرت مما عرف عن الحكيم الترمذي الذي يعد أول من عمل على إشاعة فكرة الاعتقاد بولاية الصوفية وما جرت إليه من تصور الكرامات[٥١].

والترمذي (توفي نحو ٣٢٠هـ = ٩٣٢م) محمد بن علي بن الحسين بن بشر أبو عبد الله، باحث صوفي عالم بالحديث وأصول الدين، من أهل ترمذ، نفي منها بسبب تصنيف كتاب خالف فيه ما عليه أهلها، فشهدوا عليه بالكفر، وقيل اتهم باتباع طريقة الصوفية في الإشارات ودعوى الكشف، وقيل فضل الولاية على النبوة. ورد بعض العلماء هذه التهمة عنه، وقيل كان يقول: للأولياء خاتم كما للأنبياء خاتم. وقال السبكي: «فجاء إلى بلخ بعد إخراجه من ترمذ فقبلوه لموافقته إياهم على المذهب...» وفي لسان الميزان: أن أهل ترمذ هجروه في آخر عمره لتأليفه كتاب (ختم الولاية وعلل الشريعة) وأنه حُمل إلى بلخ فأكره أهلها، وكان عمره نحو تسعين سنة[٥٢].

حضرة السقاف:

ولعل أقدم حضرة في حضرموت هي حضرة عبد الرحمن السقاف حيث يعقد لها (جلستان أو حضرتان في الأسبوع، خاصتان بإنشاد الأناشيد الصوفية، بعد أداء صلاة العشاء مباشرة، ليلتي الاثنين والخميس بمسجده مع الدفوف والشبابات، يتولى ذلك بنوه وأحفاده ثم ارتأى حفيده أحمد بن الحسين العيدروس (ت٩٦٨هـ) جلب منشدين ومطربين من مصر ومن عرف وألف منهم جوقة، عدد أفرادها سبعة حيث استوطنوا تريم وقاموا وأحفادهم بهذه المهمة باستمرار إلى اليوم...)[٥٣].

وهناك حضرات كثيرة لكنها دون حضرة السقاف، وقد صدر كتابان مصوران لمخطوط من نسختين يحمل كل منهما عنوان (المنهل العجيب الصاف في فضيلة وكيفية حضرة الشيخ عبد الرحمن السقاف) جمع إحداها عبد الرحمن بن محمد المشهور والثانية من جمع حسين بن سالم بافضل، والاختلاف إنما في القصائد حيث تغفل إحداها بعض القصائد. ويحتوي الكتاب على ترجمة صاحب الحضرة ثم في فضل الحضرة وما قيل عنها ثم كيفية الحضرة، ويليها القصائد التي تقدم بمصاحبة الطيران والدفوف والشبابات وكلها لشعراء حضارمة غير أن أكثرهم من العلويين، وتبدأ الحضرة بالأبيات التالية:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود يا غاية المنى فكل الذي فوق التراب تراب

وينسبونها ـ كما جاء في (المنهل العجيب الصاف...) النسخة المصورة ـ للشيخ أحمد الرفاعي (٥١٢-٥٧٨هـ = ١١١٨-١١٨٢م) أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسيني أبو

العباس الإمام الزاهد، مؤسس الطريقة الرفاعية، ولد في قرية حسن (من أعمال واسط بالعراق) وتفقه وتأدب في واسط وتصوف فانظم إليه خلق كثير من الفقراء كان لهم به اعتقاد كبير. وكان يسكن قرية أم عبيدة بالبطائح بين واسط والبصرة وتوفي فيها. وقبره الآن محط رحال سالكي طريقته، وقد صنف كثيرون كتباً خاصة به وبطريقته وأتباعه.، وينسب إليه شعر ليس له... مات ولم يخلف أما العقب فلأخيه.

ويقول السبكي: أصله من المغرب وسكن البطائح[٥٤]. ولكن في شرح العينية (قصيدة عبد الله بن علوي الحداد) للحبشي: «وكذا الرفاعي الرفيع مقامه...

فالرفاعي، بكسر الراء نسبة إلى رجل من المغرب يقال له رفاعة، نقل هذا عن أهل بيته اليافعي عن ابن خلكان. وقول الشعراني في الطبقات: منسوب إلى بني رفاعة، قبيلة من العرب، وقيل في نسبه أنه سيد حسيني، رأيت ذلك عن بعض أهل حضرموت... ثم رأيت الشيخ علي بن أبي بكر علوي جزم بذلك، وتبعه صاحب العقد النبوي، أعني أنه سيد حسيني، ورجحه الناظم والحمد لله»[٥٥].

لكن هذه الأبيات تنسب لرابعة العدوية، وتعد من أشعارها في الحب الإلهي، كما تنسب أيضاً للشاعر أبو فراس الحمداني، وقد وردت في ديوانه[٥٦]، وينسب البيت الثالث للشاعر الشهير المتنبي، وقد جاء في ديوانه وديوان أبي فراس هكذا:

إذا نلت منك الود فالمال هين ...

وما يحويه كتاب المنهل من المقدمة وحتى نهايته، ابتهالات ومدائح في النبي ﷺ وأهل بيته، ومنهم السقاف صاحب الحضرة نفسه. وهي لا تخرج عما جاء عند ابن خلدون التي ذكرناها سابقاً وعند غيره، وقل مثل ذلك في الكثير من مدائح أهل البيت جدداً وقدماء.

المدائح الرمضانية:

وتتنوع الوسائل لتقديم السماع الصوفي وتخترع له المناسبات قال الشاطري:«وهناك قصائد ومدائح نبوية ووعظية تنشد بأزجال خاصة في ليالي رمضان عند التراويح والوتر»[٥٧] فيتقدم لأدائها أصحاب الأصوات الحسنة والشجية، وتتكون أعمال هذه الجلسات المسائية من الآتي:

(١)التشهد (٢) الوترية (٣) الفزازية (٤) القوافي
(٥) المآخذ (٦)الدعاء (٧) الفاتحة، وهي الختام.

فبعد التشهد يتم التغني بالأبيات التالية وهي:

يا خلد من دفنت في الترب أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم
أنت الحبيب الذي ترجى شفاعته على الصراط إذا ما زلت القدم
لولاك ما خلقت شمس ولا قمر ولا سماء ولا لوح ولا قلم

إلى آخر ما تم اختياره من أبيات القصيدة وتقدم على ألحان جميلة جداً وهي على سبعة أضرب.

ومع ذكر هذه الأبيات تساق حكاية باطلة وقصة واهية، وقد استدل بها بعض الناس بجواز التوسل بالرسول ﷺ بعد وفاته، مع أن الله سبحانه وتعالى يقول في محكم آياته: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً ﴾ [النساء:٦٤]. وقد ذكرها النووي واستحسنها، أما ابن كثير فقد نقلها في تفسيره دون رواية ولا استحسان، وفي سبيل الرد عليها كتب الشيخ صالح آل الشيخ في كتابه (مفاهيمنا) أربعة أمور، رأيت من الأفضل أن أنقل هنا الأول منها: «ما دام أنها ليست من سنة الرسول ﷺ ولا فعل خلفائه الراشدين وصحابته المكرمين ولا من فعل التابعين والقرون المفضلة، وإنما هي مجرد حكاية عن مجهول نقلت بسند ضعيف، فكيف يحتج بها في عقيدة التوحيد؟ الذي هو أصل الأصول وكيف يحتج بها وهي تعارض الأحاديث الصحيحة التي نهي فيها عن الغلو في القبور والغلو في الصالحين عموماً وعن الغلو في قبره والغلو فيه ﷺ خصوصاً، وأما من نقلها من العلماء واستحسنها فليس ذلك بحجة تعارض بها النصوص الصحيحة وتخالف من أجلها عقيدة السلف فقد يختفي على بعض العلماء ما هو واضح لغيرهم وقد يخطؤون في نقلهم ورأيهم وتكون الحجة مع من خالفهم. وما دمنا قد علمنا طريق الصواب فلا شأن لنا بما قاله فلان أو حكاه فلان فليس ديننا مبنياً على الحكايات والمنامات وإنما على البراهين الصحيحة»[٥٨].

الوترية والقوافي:

وهي تشتمل على تسعة وعشرين قصيدة مرتبة على حروف المعجم، أنشأها أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن رشيد البغدادي الواعظ الشافعي الذي اشتهر بها فعرف بالوتري

البغدادي (ت٦٦٢هـ - ١٢٦٤م) وهو من شعراء بغداد وسماها (القصائد الوترية في مدح خير البرية) وجعل لكل حرف من حروف الهجاء قصيدة منها، ويبدو أنه هو من نظم أبيات القوافي[٥٩].

وقد قام محمد بن عبد العزيز الوراق بن عبد الملك ابن شعبان اللخمي وهو شاعر أندلسي قرطبي من أهل الإسكندرية (ت٧٥٧هـ - نحو ١٣٥٦م) بتخميس الوترية، وبتخميس القوافي الشهيرة بمطلعها: (تبارك ذو العلا...)[٦٠]، وللقوافي هذه جواب ينشد بالتناوب مع تخميس الوراق، والجواب منسوب لمحمد بن أحمد بن أبي الحب التريمي وقد ترجمه الكثيرون، أي أنه قام بتخميس القوافي، لكن ابن عبيد الله يشير في كتابه (إدام القوت) إلى كتاب (سفينة الأرباح ونزهة الأرواح) لأحمد بن حسن بن عبد الله الحداد (١١٧٢-١٢٠٤) وهو كتاب في مختلف العلوم الذي ورد فيه أن أبي الحب هو ناظم القوافي التي أولها:

تبارك ذو العلا والكبريا تفرد بالجلال وبالبقاء [٦١]

وابن عبيد الله لم يعلق على ذلك لكن بما أننا نعلم أن ابن أبي الحب توفي في ٢٤ذي الحجة ٧١١هـ [٦٢] فلا يمكن أن يكون هذا الأمر صحيحاً.

الفزازية:

والنوع الثالث من المدائح هي المعروفة (بالفزازية في مدح خير البرية) ونجد على غلاف مخطوطة مسجد علي بن أحمد عيديد بالشحر (كتاب تخميس الفزازية للحبيب عبد الله بن جعفر مدهر والشيخ أحمد بن عبد الله الأحسائي) ومدهر (ت١١٦٠هـ- ١٧٤٧م) صوفي

من أهل الشحر، درس على الصوفي عبد الله بن علوي الحداد بتريم، وأقام بالهند عشرين سنة ثم استقر بمكة إلى أن توفي، ولكن الأحسائي ربما يكون غيره، فقد لاحظت أن مطبوعة للفزازية صدرت عن دار المهاجر للنشر والتوزيع عام ١٩٩٥م وعلى غلافها أنها للإمامين مدهر وعبد القادر بن محمد الشجار، وعند الشاطري عبد الكريم الشجار الأحسائي، وفي شرح راتب الحداد أحمد بن عبد الكريم وينسب إلى الأحساء، وقد جاء منها لتلقي العلوم على الحداد فكان من أخص تلاميذه، وقد سجل كلام شيخه في كتاب أسماه (تثبيت الفؤاد بكلام القطب الحداد) وعلى ذلك فالاثنان درسا معاً على الحداد.

المآخذ:

ويتلو هذا إنشاد المآخذ وهي قصائد لشعراء الصوفية من حضرموت ومن غيرها، كلها ابتهالات ومدائح وهي تنشد بدون آلات لكن على ألحان جميلة ويتقدم لإنشادها أصحاب الأصوات الجميلة، ويتم كل ذلك داخل المسجد وفي بيت الصلاة منه.

الختاميات أو الختوم:

بعد مرور عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً من شهر رمضان أو أقل أو أكثر على اختلاف بين مدن وبلدات حضرموت، يحتفل في ليالي رمضان بما يسمى الختامي أو الختم أو الختوم، وتعني تتمة أيامه الأخيرة والتحسر على أيامه، وقد أخذ الاسم من إتمام ختم القرآن العظيم في صلاة التراويح، ورغم أنهم لا يقومون بذلك فقد جرت العادة أن يُقرأ في صلاة التراويح ليلة الختم من سورة (الضحى) إلى سورة (الناس) مع قول المصلين إثر كل سورة

(لا إله إلا الله والله أكبر)، وفي هذه الليلة وبعد أن يتم أداء المدائح المعتادة (الوترية والقوافي والفزازية) يتقدم أصحاب الطارات والمطارق وهي آلات موسيقية إيقاعية، ويتصدرون المكان في المسجد وعند محرابه ويؤدون ما يعرف بالختامي، ويتكون من خطبة وعظية ثم تنشد القصائد المختلفة المحتوى والهدف منها ابتهالات وأدعية واستغاثات وتمنيات بنزول الخير ورفع الشر، ومدائح نبوية ومدح للأئمة من آل البيت والأولياء عموماً، ثم الزف إلى أقرب ولي (قبر أو مشهد) وتتكرر الأدعية والاستغاثات وطلب رفع الشر وإنزال الخير من الله والنبي والولي، وكل ذلك مع الألحان لهذه القصائد وإنشادها مشاركة مع الحداة وضاربي الطيران (اثنان) والمطارق من (٦ – ٨) ويتناوب المنشدون بإلقاء قصائد لا يختلف محتواها عن السابقات لكنها تنشد دون آلات.

تطورات مثيرة:

في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين رأينا تطوراً ملحوظاً ومثيراً للجدل في إنشاء العديد من الفرق الإنشادية الخاصة بتقديم القصائد المتنوعة، وهي في المقام الأول ابتهالية ومدائح متنوعة، وقد أدخل إليها قصائد أخريات، فرائحية ومناسباتية، ولهؤلاء كسابقيهم بعض قصائد الغزل البشري والمحبة والعشق، إلى ما يعتقده المتصوفة من أنها تأويلات في الذات الإلهية والعشق الإلهي.

هذه الفرق قد طورت وسائل الموسيقى عندها بإدخال آلات أخرى قديمة وحديثة وقامت بالسطو على الألحان ذات الموسيقى والإيقاعات الراقصة، وهي في الأصل موسيقى أغنيات مشهورة ومن إنتاج ملحنين معروفين ومطربين مشهورين، ولا يبقى في ذهن المستمع

إليها إلا هذه الحركات الراقصة مع تناقضها لما يسمعه من أدعية وابتهالات ومدائح، إلا إذا كان الهدف الرئيس لواضعي هذه الألحان إيصال ما تتضمنه القصائد وبتكرار متعمد ومقصود، فتم اختيار هذه الموسيقى لتخليد ما يراد منها في الذاكرة إلى الأبد.

إن هذا التطور قد أثار الذاكرة التاريخية لدى الجميع وقد أرجعني إلى مسألتين:

الأولى: صدق ما نقله لنا الإمام الأباضي أبو إسحاق الهمداني لما حدث في زمانه ربما من قبل دعاة الدعوة الصليحية، وهي دولة باطنية نقلت الكثير من الابتداعات التي مورست أيام خلفاء الدولة الفاطمية بمصر وخاصة النشاط الأيدلوجي[٦٣] ومنه التغني بمشاركة الآلات الموسيقية داخل المسجد، وقد سبق أن سجلنا رأي أبي إسحاق في أبيات من شعره كنماذج باعتباره أباضياً له رأي في مسألة الغناء كله، إضافة إلى كونه شاهد على عصره، وعلينا ألا نستغرب إذا اتفقنا على أن الأصل في الموسيقى هذه إنما انتشرت بالمغرب العربي وانتقلت مع الدولة الفاطمية إلى مصر ثم إلى حضرموت عبر الدولة الصليحية الإسماعيلية.

وبهذا الصدد علي أن أسجل شكراً للأستاذ عبد العزيز عبد الجليل الذي نقل إلينا الكثير من المعلومات عن كتب مخطوطة مطبوعة، منها كتاب (الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون) لابن غازي المكناسي الذي أفاد بأن الموسيقى: «أصبحت مادة تلقن ببعض المساجد» وأضاف: «وظهر بين المقرئين أساتذة للغناء أمثال أبي العباس الغماري الذي كان في آن واحد يعلم القراءة وصناعة الغناء بمكناس أيام بني مرين، وكان من تلاميذه من يحسن الصناعتين»[٦٤]، وبنو مرين سلالة بربرية حكمت المغرب (٥٩١-٨٧٣هـ = ١١٩٥-١٤٦٨م) وقامت على أنقاض دولة الموحدين، وازدهر بلاطهم بفاس، ونبغ في عهدهم ابن خلدون والخطيب وابن بطوطة ومن آثارهم جامعة القرويين بفاس[٦٥].

وعلى هذا فلم يكن عجيباً أن تؤتي هذه الحركة ثمارها أنى توسعت الدولة الفاطمية ومن انضوى تحت حكمها وكان نصيبنا في حضرموت ما ذكره شاهد العصر الشاعر الإمام الأباضي أبو إسحاق إبراهيم بن قيس الحضرمي.

الثانية: تؤكد لنا القنوات التلفزيونية والمواقع الإلكترونية أن ما يسمى (الأناشيد الدينية) في شمال أفريقيا العربية من أكبر الأخطاء إذ أنه لا أناشيد ولا أغانٍ في الدين الإسلامي وليس لهذين الضربين من الغناء أية علاقة بالدين الإسلامي، وأن هذا شكل من أشكال التأليف الموسيقي الكنسي، يكتب غالباً للكورال بمصاحبة آلة موسيقية أو دون مصاحبة، وقد تظهر في فقرات لمغنين منفردين ذكوراً وإناثاً.

إن هذه الأنشطة الغنائية أو ما يعرف عند الصوفية بالسماع، لا زالت تمارس إلى يوم الناس هذا وهي آخذة في التطور والنماء، قد كان في نية من أدخلها إلى حضرموت أن يسعى إلى أن تكون نسخة مما يوجد إلى اليوم في أكثر بلاد المغرب العربي، وبجميع الآلات الموسيقية، لكن الوسط الأباضي في ذلك العهد أي وقت استيلاء الصليحيين على حضرموت وقف حجر عثرة في سبيل ما أراد تحقيقه هؤلاء في المساجد، رغم استفحال أمر الصليحيين ومن خلفهم، فقد اضطروا إلى الاقتصار على بعض الآلات التقليدية في المنطقة كالآلات الإيقاعية: الطار والدف والمطرق، وآلة النفخ الشبابة (القصبة) في حالات نادرة، بقيت إلى اليوم في حضرة السقاف وانتهت من حضرة سالم عمر العطاس بالشحر، وكانت على شبابة واحدة.

لكن هؤلاء المتصوفة أدخلوا هذه الآلات وجميعها عندما حانت لهم الفرصة، وقد تمثلت في موسيقى المهاجرين من الحضارمة في شرق آسيا وكانت أكثر وضوحاً، فقد وصلت

إلينا أغنيات للعديد من الفنانين كالسقاف وباحشوان وغيرهما، وهما يؤديان أغنيات هي في الأساس ابتهالات وأدعية وأذكار وصلوات ومدائح بمصاحبة الآلات الموسيقية في شبه تكامل من العود والكمانات والنايات والآلات الحديثة كالأورغ والأكورديون إضافة إلى الإيقاعات المتنوعة.

لقد نشر رجال التصوف ذلك في كل بقاع العالم التي هاجروا إليها كحضارم مثل بلاد الشرق الأفريقي وسواحل بلاد الهند وشرق الآسيوي وهي فيه أكثر وضوحاً كما أشرنا، لكننا لن نذهب بعيداً، ولنختار مدينة الشحر كنموذج حاضر وفيها تم نقل الفكر الصوفي إن لم نقل تم تصديره وفي شكل شبه كامل.

السماع الصوفي بمدينة الشحر:

لقد تزعمت مدينتا تريم والشحر اتجاهين مختلفين، فقد تزعمت مدينة تريم الاتجاه الصوفي واكتمل نشاطه في القرن العاشر، بينما تزعمت مدينة الشحر الاتجاه السني وعضت عليه بالنواجذ، وقد تمثل ذلك في:

١ـ معاملة السلطان بدر بن عبد الله الكثيري أبو طويرق لبعض رموز التصوف ومنهم الشيخ معروف باجمال (٨٩٣ – ٩٦٨هـ) فقد أمر السلطان بدر أن يربط حبل في عنق الشيخ معروف وأن يطاف به في أزقة مدينة شبام وينادى به (هذا معبودكم يا أهل شبام) وكان المشايخ المشهورين بالتصوف والجاه والنفوذ بين عامة الشعب، ويذكر بعض المؤرخين (أن ما فعله بدر كان بسبب عقيدة العامة فيه وفي قداسته)[٦٦] ومن ذلك العنت الذي لقيه الشيخ

عمر بن عبد الله بامخرمة (٨٨٤-٩٥٢هـ) فقد بلغ تصرف السلطان بدر في حق ذلك الصوفي والشاعر الشعبي الشهير مبلغاً لا حد له من القسوة وانعدام روح المسؤولية، فقد طارده من قرية إلى قرية وبعد أن ظفر به زج به في سجن سيئون مدة طويلة ثم أبقاه في سيئون بعد اعتلال صحته فيما يعرف اليوم بالإقامة الجبرية حتى وفاته[٦٧].

٢ـ افتتاح المدرسة التي نسبت إليه (المدرسة البدرية) وانتخب علي بن علي بايزيد التولبي الدوعني (ت٩٧٥هـ) مديراً لها وكان سنياً تشهد بذلك فتاويه وهي في طريقها إلى النشر ـ هذا العام إن شاء الله، ويشهد بذلك مؤلفه بعنوان (عقد اللآلي والنكت الغوالي فيما يتعلق بإرشاد الغاوي).

٣ـ انتشار الفقه السني في المدينة ومن ذلك إقرار مدير المدرسة البدرية الشيخ بايزيد تدريس كتاب (الغاوي في مسالك الحاوي) والمشهور بالإرشاد وهو من تأليف علامة اليمن إسماعيل بن أبي بكر المقري (٧٥٤-٨٣٧هـ) وعليه شروح كثيرة ونكت وللحضارمة عليه مشاركات منها مؤلف بايزيد المذكور آنفاً، ومنها مؤلف الشهيد أحمد عبد الله بلحاج بافضل (ت٩٢٩هـ) بعنوان (النكت على الإرشاد) وكذلك كتابه (النكت على الروض) وهو لابن المقري أيضاً، ومنها مؤلف الشيخ محمد بن عبد الرحمن سراج باجمال (نظم الإرشاد وشرحه) وباجمال من خريجي المدرسة البدرية. والمقري فقيه سني لا يختلف على سنيته أحد وقد أسفر عن وجهه في كثير من قصائده المنشورة في ديوانه المطبوع كقوله:

برغم سنة خير العجم والعرب أمست ساجدنا للهو واللعب
ما كان صلى عليه الله يأمرنا بضرب دف ولا زمر ولا طرب
يا رب منيتك البيضاء قد وقعت في ورطة أشرفت منها على العطب

وما بقى الحق إلا ما يقول به الحلاج وابن التلمساني وابن عربي[٦٨]

٤ـ وقوف الفقيه القاضي عبد الله بن عمر بامخرمة المعروف بالشافعي الصغير (٩٠٧-٩٧٢هـ) موقفاً صلباً تجاه كل الدعوات الصوفية ورجالها وكتبهم، بمن فيهم والده الصوفي عمر عبد الله بامخرمة الذي لم يذكره في الذيل الذي وضعه لطبقات الأسنوي مع منزلته الفقهية، وفي هذا وضع مؤلفاً أسماه (حديقة التوحيد وصحيح الاعتقاد في تكفير طائفة الوحدة والاتحاد) وهو في الرد على طائفة ابن عربي، ولعل مواقفه من التصوف ودعاته هي التي جعلت ممن يملك زمام الأمر في حضرموت آنذاك أن يذهب إلى اعتماد ما جاء عند ابن حجر في (التحفة) مع الاعتراف بسعة علم بامخرمة.

وفي مثل ذلك يذكر محمد عوض بافضل في كتابه (صلة الأهل) عند ترجمة الفقيه عبد الله عبد الرحمن بافضل الذي تدبر مدينة الشحر وتولى الخطابة بجامعها والتدريس بمدرسة الجامع وتوفي بها عام ٩١٨هـ ، وذلك نقلاً عن حديث لمحمد بن حكم بن سهل باقشير الهندي، قال سمعت الشيخ عبد الرحمن بن علي بن أبي بكر علوي في رجب الحرام عام ٩١٥هـ يقول:«ما عندي أحد مثل الفقيه عبد الله بلحاج وأطنب في ذكره وذكر مناقبه وأحواله... فهو مع سلامته وعدم تأنيه عند كلامه، لا يخرج كلامه إلا موزوناً بالسنة... وذكر عبادة الفقيه عبد الله ويقينه ورضاه عن الله في البر والبحر، في العسر واليسر، وحسن خلقه مع جميع الخلق وكماله معهم حتى لا يغيروا من حسب صفته شيئاً، قال: حتى أنه حل عند الشحارية الذين قال فيهم القطب الرباني عمر بن عبد الرحمن علوي، كوافي آل الشحر زبد بول الحمار»[٦٩].

وعبد الرحمن بن علي بن أبي بكر السكران (٨٥٠-٩٢٣هـ = ١٤٤٦-١٥١٧م) ولد بتريم وتلقى على علمائها ثم رحل إلى عدن فكان مع عمه العيدروس العدني وتوفي بتريم. وبكتاب (المنهل العجيب الصاف) عدد من قصائده وله ديوان مخطوط في مكتبة الأحقاف للمخطوطات وترجمته بالمشرع الروي.

ولنا الحق وكل الحق أن نتساءل عن السبب الذي جعل الشيخ عبد الرحمن يحدث بمدحه أهل مدينة الشحر وأنهم لم يتمكنوا من تغيير صفة الشيخ بافضل، ويزكي رأيه فيهم بما جاء على لسان جده لأمه الشيخ عمر المحضار بن عبد الرحمن السقاف من أن (كوافي آل الشحر زبد بول الحمار) إنها إساءة كبيرة نبعت من الاختلافات المذهبية أو عدم قبول علماء الشحر وطلاب مدارسها والمتفقهين بها المنهج الصوفي الذي أظهره وتشيع له الصوفية ودعاتها في تريم وإحباطها. وكان أهل الشحر قد رفضوا اتباع تعاليم الشيخ سعد الدين الظفاري الصوفي الذي تدبر الشحر وتوفي بها سنة ٦٠٧هـ. وإذا قيل أن موكب جنازته تعرض للاضطراب على يد الجنود الغز، وأنه ذو مكانة كبيرة عند أهالي الشحر، كما يشير إلى ذلك الأستاذ محمد بامطرف، فإننا لم نر إلا قليلاً من الأتباع والمريدين له ونعتقد أن أمر المكانة هذه لم تتعدى الاحترام والتقدير، ولقد كره العلويون طريقته وتمثل الكره في تلميذه محمد علي باطحن الظفاري الذي كتب ترجمة في شيخه جاءت بعنوان (تحفة المريد)، قال ابن عبيد الله:«أن غلوه في شيخه أوقعه في إساءة الأدب على الفقيه المقدم فكرهه العلويون»، ونحن لا نعلم شيئاً عن هذه الإساءة ولا حجمها، فقد تعرض كتاب باطحن للضياع، أما الصوفي عمر عبد الله بامخرمة فإنه رغم مكوثه بالشحر وزواجه بها ثم افتتاحه مدرسة بها أيضاً لم يستطع أن يكون له كبير الأثر فيها بل أصبح يضيق من المكوث فيها، جاء ذلك في قصائده ومنها قوله:

يـا جبـير إنهـا ضـاقت خـلاق الـذي حـب
ضاقت الشحر حد الضيق وأمسيت مـذهب
دور فيهـــا وشرق في حوطهـــا وغـــرب

وقوله:

فضـــة إن هبـــت الجايـــة إلى نجـــد هبـــي
إن لقيتنـــي كـــرا وإلا تحـــذي وخبـــي
ويـش بغينـا بـدا المقعـد في الشـحر نصـبي

وقوله في قصيدة أخرى:

آه.. أنـا يـا فضيضـة دقـت مـا لـيس ينـداق
مـن هـوان الهـوى ذي بـه تـدانين الأعنـاق
فاسـتريحي ونـوحي بـه ولـو منـه لحـراق
فـإن بي شـغب لـو بعضـه عـلى الحيـد مـا طـاق
ضاقت الشـحر بي والحـال بعـد الـنفس ضـاق
والتظـين الحـواني مـن لظـى حـر لشـواق

نعـم لم يسـتطع الصـوفي عمـر بامخرمـة أن يكـون لـه مريـدين وأتبـاع في الشـحر حتـى يحافظون على طريقته، وبلغ أن قال عنه العلويون:«للشيخ بامخرمة تخريفـات حتـى قـال بعـض منتقديه لو أن حضرموت استولى عليها حاكم نصراني لكان ذلـك أقـل ضرراً ممـا أحـدث فيهـا بامخرمة من البدع»[٧٠].

إن دعاة صوفية اليوم هم أحفاد صوفيي القرن السابع حتى العاشر وما بعده وهم الذين اختلف اتجاههم الصوفي عن طريقة سلكها سعد الدين الظفاري وأخرى سلكها بامخرمة وغيرهما وكان لهم ما أرادوا.

ولقد كان أهل مدينة الشحر هم المتسامحون والمتناسون لمثل هذه الإساءات، وكان المتصوفة منهم والذين يدورون معهم أو من يحبهم ويحضر مجالسهم يرددون وإلى يومنا هذا النشيد الصوفي:

يا عمر وبو عمر وأخوه عمر شيء لله.

وهو يردد عشر مرات مع ختام حضرة الشيخ أبو بكر بن سالم.

ويقدم النشيد الذي منه:

معنا الوسيلة عمر محضار يدرك عجول
تفتح باسم المعنى مغلقات القفول
بانشرح الحال للمحضار فحل الفحول

ونشيد آخر:

يا حبيبنا عمر شيء لله يا الشجاع المشتهر شيء لله
يا شجاع الدين غارة شيء لله ينجلي عنا الكدر شيء لله
غارة تأتي سريعة شيء لله يا حبيبنا عمر شيء لله

ويبدو لي بأن اختلاف أبناء وأحفاد أبي طويرق على كرسي الحكم هو الذي أخل بما كانت عليه مدينة الشحر، فانتصرت الصوفية وذلك بعد أن غادر بعض علمائها هذه الفانية وذهب آخرون إلى خارج البلد إلى عدن وزبيد وأفريقيا والهند، بعد أن فقدوا النصير والمؤازر لمواقفهم فتعطلت المدارس أو كادت، إذ أن الفكر السني يتطلب درس وعلم للفقه وقضاياه، بينما يعتمد التصوف ودعاته على العامة والأميين ومنهم من وصل إلى مرحلة القطبية وهو أمي ويمكننا أن نعد أكثر من واحد منهم، ولهذا كثر جمعهم دون تفكير ولا دراية.

ومر زمن لم يكن طويلاً إلا والمدينة والكثير من سكانها يدورون في فلك التصوف، يقودهم دعاته بشكل من التبعية والتسليم، لم يكن مثله حتى في تريم نفسها وهي رائدة التصوف في حضرموت كلها.

السلطان علي بن بدر وقاضيه باحسن:

تولى السلطان علي بن بدر أبي طويرق الحكم بحضرموت بعد أخيه عيسى بن بدر المتوفي سنة ١٠٨١هـ (١٦٧٠م) وذلك بأمر الإمام الذي استولى على حضرموت، لكن السلطان الأمير حسن بن عبد الله بن عمر بن بدر أبو طويرق متولي الشحر بأمر الإمام أيضاً خلع طاعة الإمام، فتوجه إليه السلطان علي بن بدر بجيش كثيف وهجم على مدينة الشحر براً وأخرج منها حسناً، ويبدو أن أفكار الأمير حسن ذاعت وانتشرت بين الناس، لكن السلطان علي بن بدر تنقصه الكياسة في الآراء السياسية فهو مع شفقته على الرعية وحبه لها، كثيراً ما يفشل في مجاري السياسة ويعجز عن معالجة مشاكلها، فقد كان الزيدية قد منعوا

قراءة راتب الحداد في المساجد وبقي ممنوعاً فأعاد السلطان علي قراءته، ذكر ذلك ابن هاشم في تاريخ الدولة الكثيرية.[٧١]

ويذكر باحسن في مخطوطته أن السلطان علي بن بدر قد طلب الشيخ علوي بن عبد الله بن محمد باحسن جمل الليل من بلدته ليوليه قضاء الشحر وإمامة الجامع والخطابة فيه حتى توفي عام ١١١٧هـ (١٧٠٥م)، ويذكر الحبشي شارح العينية عند ترجمة القاضي علوي باحسن أنه قرأ على ناظم العينية الصوفي الكبير عبد الله بن علوي الحداد كتاب (الإحياء) وكتاب (الأربعين الأصل) وهما للغزالي، والحداد معروف بفرط محبته للغزالي وكتاب (الإحياء) وقد قال في (النصائح): «وجميع ما في الإحياء لم يؤلف في الإسلام مثله في فنه» وجميع متصوفة حضرموت يعظمونه كثيراً وعبارة السقاف (من لم يطالع الإحياء ما فيه حياء) مشهورة على لسان كل منهم.

وقد انعكست تعاليم الغزالي والحداد وغيرهما على باحسن القاضي والخطيب وعلى أنشطته في التدريس والخطابة والسلوك بالشحر.

إننا هنا سوف نقتصر على السماع الصوفي ولا نتعداه إلى نشاطات صوفية في مجالات أخرى، فعنوان البحث لا يسمح لنا إلا بالاقتصار على أمكنة وأزمنة تقديم هذه الابتهالات والمدائح، ولمتابعة دعاة التصوف الحضارمة في نقل ونشر وتصدير هذه الأنشطة الفنية إلى كل بقاع الأرض التي اعتادوا أن يهاجروا إليها كالبلدان التي تقع في شرق إفريقيا وسواحل الهند وشرق آسيا، وقد اخترنا مدينة الشحر كنموذج لهذا النقل بل التصدير المتعمد من مدينة تريم، ولسوف يطول البحث لو وقفنا عند كل واردة وشاردة، لذا رأينا أن من الأفضل التركيز على الأهم من هذه الأنشطة.

الحضرات بالشحر:

إن هذه الحضرات قد كثرت في مدينة الشحر وحدها مع الاقتصار عليها دون أن نتعداها إلى ما يحدث في قرى تابعة لها ومن أعمالها كقرية تبالة والواسط وشعب النور والجرادف وزغفة والمعيان وقرى وادي عرف، فإن بمدينة الشحر ما يزيد على ثلاثة وأربعين حضرة أسبوعية، وهذا ما استطعنا جمعه والتأكد من صحته، وربما سقطت منا بعضها بعد أن انتهى أمرها ولم تعد تمارس في أيامنا، ففي كتاب (أنس السالكين) وهو من تأليف عبد الله بن عبد الرحمن باهارون وهو من أهل القرن العاشر، ما نصه: «إن للعارف بالله الشيخ فارس باقيس الدوعني مسجداً بالشحر، وقد كان صاحب سماع وتواجد وله راتب في مسجده ليلة الجمعة وليلة الاثنين» ومسجده هذا مندرس كما يشير إلى ذلك المؤرخ عبد الله محمد باحسن في باب (المساجد المندرسة) في كتابه المخطوط (النفحات المسكية) وقد اندرست حضرته مع مسجده المندرس.

وهذا ثبت إحصائي بالحضرات التي بقيت إلى زمن متأخر وتمارس أسبوعياً بمدينة الشحر:

الرقم	صاحب الحضرة	زمنها	ملاحظات
١	أحمد أبو بكر بن سالم	عصر الجمعة	مسجده في حي عقل باعوين
٢	سالم بن عمر العطاس	صباح الخميس	بضريحه ويضاف إليها شبابة
٣	فضل بن عبد الله بافضل	ليلة المغرب الجمعة	بضريحه الملاصق لمسجده بالخور
٤	عبد الله عبد الرحمن بافضل	ليلة السبت	بضريحه بعقل باعوين
٥	عبد الله محمد باهارون	عصر الخميس	بضريحه الملاصق للجدار الشرقي لمسجده

الرقم	صاحب الحضرة	زمنها	ملاحظات
٦	أحمد بن أبي بكر مول الغربان	عصر الثلاثاء	ضريحه على ساحل البحر بحي المجرف
٧	أحمد باعوين	بعد عشاء الاثنين	بمشهده بحي باعوين
٨	أحمد غبطة	بعد عشاء ليلة الخميس	بمسجده بعقل باعوين
٩	سعد الدين بن علي الظفاري	بعد مغرب ليلة الاثنين	بالمسجد لا تستعمل الدفوف ولكن التصفيق
١٠	علي بن أحمد عيديد	يوم الاثنين	بمسجده صباح يوم الثلاثاء
١١	عبد القادر الجيلاني	ليلة السبت	بمشهده بحي القرية
١٢	عمر المحضار بن عبد الرحمن السقاف	عصر الخميس	مسجده بحي عقل باعوين
١٣	علوي بن محمد بن حامد المحضار	ليلة السبت	بضريحه المجاور لمسجد المحضار عقل باعوين
١٤	أحمد باجوبان	ليلة الاثنين	عصراً بالمسجد
١٥	سالم عسكول باوزير	عصر الأربعاء	عصر الخميس بحائطه بحي المحط
١٦	عبد الله بن يعقوب	صباح الجمعة	بمسجده (فيما بعد ضريحاً(قبة))
١٧	شيخ بن إسماعيل	صباح الجمعة	إنشاد فقط دون دفوف بمسجده
١٨	عبد الله باسويدان	صباح الثلاثاء	في مسجد الشيخ أحمد يوم الثلاثاء
١٩	علي بن محمد مزاحم	بعد صلاة العشاء	عند قبره بحي القرية
٢٠	محسن بن عمر باوزير	بعد صلاة العشاء	عند قبره بحي باغريب
٢١	سعيد سالم باهبري	بعد عشاء..	سعيد بن سالم باهبري بجانب مسجد بقشة
٢٢	أحمد بن صالح مول الشعب	بعد عشاء السبت	بيته القديم بحي عقل باعوين
٢٣	عبد الله بن أبي بكر العيدروس		بمسجده بعقل باغريب

الرقم	صاحب الحضرة	زمنها	ملاحظات
٢٤	أبو بكر عبد الله صالح العطاس		بيت عمر أبو بكر باشميلة
٢٥	علي بن حسن العطاس		
٢٦	علي بن محمد الحبشي	ليلة الاثنين	بمسجد الروضة
٢٧	عبد الرحيم بن سعيد باوزير	صباح الثلاثاء	
٢٨	الشهداء السبعة		بضريحهم بحي عقل باعوين
٢٩	علي بن حسن البيض		
٣٠	شيخ بن عبد الله العيدروس		
٣١	علي بن محمد بن طالب	بعد عشاء الثلاثاء	قبره بساحة حي المجوره
٣٢	عمر محضار السقاف		بمسجده بحافة الخور
٣٣	مكنونة ويقال أنه من آل السقاف		بحائطه وسط مقبرة بلحاج بافضل
٣٤	الأحمدية (زاوية طرائقية)	ليلة الاثنين وليلة الثلاثاء	بالزاوية نفسها
٣٥	أحمد باصليب	بعد عشاء الأحد	أي ليلة الإثنين (لا يعرف مكانه)
٣٦	أبو بكر عبد الله العيدروس		بمسجده بالرملة
٣٧	مول العقائد		على قبره خلف مول المحطة (مستشفى الشحر)
٣٨	عبد الله سالم بن إسماعيل	بعد صلاة المغرب	بحي القرية بجانب بيت آل بن جازع
٣٩	سعيد عمر بلحاف		
٤٠	إسماعيل بن إبراهيم السقاف مول الطار		
٤١	عبد الرحمن بن الشيخ أبو بكر بن سالم		قبته مهدمة اليوم
٤٢	سعيد بن عيسى العمودي		بمشهده بحي المجرف ملاصق لمنزل آل مبروك
٤٣	عبد الرحيم بن عمر باوزير		محفوظ باعكابة

الموالد بالشحر:

يتحدث أهل الشحر على أن حامد محمد سالم السري (١٣١٠هـ - ١٣٩٦هـ) (١٨٩٠-١٩٧٦م) هو الذي أسس الاحتفال بالمولد، أي منذ ابتدأت بالشحر في ربيع أول، وقد جاء هذا مكتوباً عند جمعان سالم عماني الشحري في مقال تحت عنوان (تأسيس المولد في مدينة الشحر) نشره (بالرباط) نشرة تصدر عنه[٧٢]، ونقلها عنه عيدروس محمد الحبشي (عادات شحرية) [٧٣]، ولكنه تغافل عن ذلك في كتيبه المطبوع بعنوان (التوضيحات).

والعبارة ليست دقيقة، فهل كان ترتيب السري لهذه الاحتفالات يقصد به تأسيسها في شهر ربيع الأول من كل عام؟ أو الطريقة التي نشاهدها اليوم؟ أو الصيغة المتناسقة من حيث الطريقة المتبعة لقراءة الفصول والكورال والأناشيد والفواتح وغير ذلك مما هو معروف لدى الجميع؟ ثم إن الإضافة إلى هذه العبارة لا تزيدنا إلا إرباكاً، فقد جاء أن علوي بن عبد الرحمن المشهور والمتوفي بتريم ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) مدير/ مشرف المدرسة الأهلية مكارم الأخلاق عند الافتتاح عام ١٩١٨م وهو الذي طور هذه الاحتفالات بأن جعلها في إحدى عشر ليلة بمساجد معينة ابتداءً من أول يوم من شهر ربيع الأول، ثم الاحتفال كل في مسجده ليلة الثاني عشر، ليلة مولد الرسول ﷺ على أرجح الأقوال، فما الذي أسسه السري من هذه الاحتفالات؟

ثم قام مؤسس رباط الشحر ومدير مدرسة مكارم الأخلاق اللاحق الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن الشيخ أبو بكر، بتعميم هذه الاحتفالات بمساجد الشحر كلها على ترتيب موضوع ابتداءً من مسجد عمر محضار السقاف بحي عقل باعوين وحتى مسجد الشيخ بافضل والجامع، وقد بلغ تعداده وقت المؤسس الشيخ عبد الله ثلاثة وأربعين مسجداً، وزاد

عددها إلى واحد وخمسين بعد أن زاد تعداد المساجد ابتداءً من عام ١٩٩٠ م، غير أن عدداً من المساجد المبنية حديثاً وبعض القديمة لم تعد تمارس بها هذه الاحتفالات ولا يرغب أصحابها في القيام بها.

إن الاحتفال بهذه الطريقة يمارس في أغلب مساجد الشحر مساء كل أحد ومساء كل خميس من كل أسبوع، وكان بكامل عدته، أقصد الاحتفال المصحوب بالآلات الإيقاعية كالطار والمطارق، لكنهم اليوم اقتصروا على استعمالها في الاحتفالات الموسمية السنوية كالزيارات الحولية والاحتفالات بالمولد التي أسسها أشخاص معروفون محددون نذكر منهم على سبيل المثال:

* مولد أسسه محمد بن علي الحبشي بعد صلاة مغرب آخر جمعة من ربيع الأول بمسجد الروضة (روضة والده الداعية الشاعر الصوفي علي بن محمد الحبشي).

* مولد أسسه مجهول يقام عند مشهد الشيخ سعيد بن عيسى العمودي المقبور بحافة المجرف عصر آخر جمعة من ربيع الأول من كل عام وللشيخ مشاهد كثيرة في بقع من منازل أهل الشحر أعرف منه ثلاثة:

١ـ بمنزل (المدعوة باعوده).

٢ـ منزل سعيد عوض رويعي.

٣ـ منزل عبد الرحمن بخضر.

وتقيم النساء احتفالات عند مشاهد سلطانة بنت علي الزيدية المنتشرة أيضاً بمنازل أهل الشحر.

* مولد أسسه الشيخ الداعية الصوفي عبد الكريم عبد القادر الملاحي بمسجد بن عتيق عصر- أول اثنين من شهر صفر من كل عام.

وتقام الاحتفالات بقراءة قصة المولد وما يتبعها من ترتيب في الزيارات الحولية الكبيرة عند أضرحة وقبور ومشاهد البعض مثل:

١- زيارة الشيخ باحميد مول مرضحين ثم المخاضة بوادي عرف.

٢- زيارة يمعوض وعاجبات والعينية بقرية يمعوض.

٣- زيارة الست بقرى شعب النور والواسط وتبالة وما يليها.

٤- زيارة ناصر والصبار بالجرادف.

٥- زيارة المسجدي بقرية معيان المساجدة.

٦- زيارة الشيخ سعد باثقيلي ومول خلفان بقرية زغفة.

٧- زيارة الشيخ سالم بن عمر العطاس بمدينة الشحر وما يتبعها من زيارات وما يسبقها كزيارة (رقوان) حفيدة العطاس صاحب الزيارة، وليلة الغيلي ثم زيارة الشيخ فضل بافضل، ثم زيارة الشيخ أحمد بن الشيخ أبي بكر ثم زيارة مشهد عسكول وكلها في ليالي متوالية، وهذه الأخيرات تعد زيارات صغيرة لم تسعد بالشهرة وهي كثيرة وبعضها اندثرت، ومنها:

١- زيارة عبد الله محمد باهارون عند ضريحه الملاصق لمسجده في ١٧ محرم.

٢- زيارة عبد الله عبد الرحمن بافضل عند ضريحه القريب من مسجد ابنه المعروف، في ١ محرم.

٣- زيارة عمر المحضار السقاف في ساحة مسجده بحي باعوين، عصر ١١ شوال.

٤- زيارة بن جوبان بجانب مسجده بحي عقل باعوين عصر ١٢ شوال.

٥- زيارة أحمد باعوين عند مشهده بحي عقل باعوين عصر ١٥ شعبان.

٦ـ زيارة الشيخ فاضل بحي القرية عصر ١٦ شعبان.

٧ـ زيارة عمر بن أحمد بدفيقة عصر يوم ٢٢ شعبان.

٨ـ زيارة مول غربان بحي المجرف عصر ليلة آخر أربعاء بشعبان.

٩ـ زيارة مزاحم بحي القرية عصر آخر جمعة من شعبان.

١٠ـ زيارة أبو بكر عبد الله العطاس عصر ومغرب ٥شوال بمسجد عمرو.

١١ـ زيارة السبعة عند ضريح الشهداء السبعة بحي عقل باغريب عصر ٧ شوال.

ونكتفي بهذه وإلا فهناك زيارات أخرى لم نذكرها خوفاً من الإطالة.

وبكل هذه الزيارات يقام الاحتفال بالمولد وتمارس الألعاب الشعبية المختلفة كالزوامل لقبائل حضرموت ولقبائل يافع وزوامل القرويين بجانب رقصات العدة والشوّاني ورقصات للبادية وللقرويين الفلاحين، كل المذكورة هنا ذات شقين الأول منها شعر حيث يتبارى الشعراء فيها في مساجلات لا تخلو من الابتهالات والمدائح النبوية ومدائح آل البيت النبوي والأولياء والحكام.

المدائح الرمضانية والختاميات:

أما في ليالي رمضان ففي كل مساجد الشحر تقام المدائح التي سبق الحديث عنها وهي: الوترية والقوافي والفزازية، وفي كل المساجد القديمة أيضاً يقام بما يقال له (الختامي) وقد كفانا الأستاذ جمعان سالم عماني (الشحري) مؤونة البحث لإحصاء المساجد التي تتم بها هذه الاحتفالات من أهل الطرق الصوفية لما يعرف عندنا بالختامي ويقول لها البعض

الختاميات أو الختوم أو الختم، وهي في كل الأحوال تفيد خاتمة الشيء أي نهايته وتمامه. ذكر ذلك عماني في كتيب تحت عنوان (التوضيحات في الحول والحضرة والزيارات) غير أنه أخطأ في ذكر أسماء المساجد التي يقال لها (المناصب) والتي يتم الاحتفال بالختامي بها في ليلة السابع والعشرين من رمضان، والصحيح هي:

١ـ مسجد جامع الشحر
٢ـ مسجد الشيخ سعد الدين الظفاري
٣ـ مسجد الشيخ أحمد بن قضيمتي
٤ـ مسجد الشيخ فضل بافضل
٥ـ مسجد الشيخ عبد الرحيم سعيد باوزير
٦ـ مسجد الشيخ شيخ بن إسماعيل
٧ـ مسجد الشيخ أحمد بن الشيخ أبي بكر .

ويقال لهم المناصب، وتعني الذين تم تنصيب كل واحد منهم نقيباً ليحافظ على حقوق فئته، وهذه معروفة لدى العلويين هنا في حضرموت وفي البلاد الأخرى، وكان أول نقيب للعلويين في حضرموت هو الشيخ عمر بن عبد الرحمن السقاف الشهير بلقبه المحضار، ولكننا لا ندري شيئاً عن نقابة بن قضيمتي والظفاري وبافضل وباوزير، ثم إننا ماذا سنقول بشأن مسجد الجامع فهل كان نقيباً معنوياً على بقية مساجد مدينة الشحر، من يدري؟

ويبدأ أصحاب الطرق في الختامي بالمسجد الذي خصصت له هذه الليلة مثلاً بعد الانتهاء من المدائح، حيث يتصدرون محراب المسجد وقبلته ببيت الصلاة فيه ويضربون الدفوف (الطارات) والمطارق، يتغنون بالقصائد الصوفية التي لا تختلف عن التي تقدم في الحضرات والموالد وغيرها إلا بإضافة قصائد وداع رمضان، ثم تتناوب هذه مع إنشاد بعض القصائد دون تلحين وغناء وتكثر بهذه الاحتفالات الفواتح والأدعية والأماني والاستغاثات

والتوسل بالأولياء وآل البيت الأموات والمقبورين قرب المسجد وكذلك البعيدين عنه، ثم يتم التحرك جماعياً فيما يعرف (بالزف) مصطحبين الطارات والمطارق وهم ينشدون القصائد المشابهة للأول وقد أدخلت حديثاً مصابيح الكيروسين، حيث يحمل بعض الشباب (٦-٧) هذه المصابيح (الإتريكات) ويتحركون في شكل راقص حتى يصلون إلى أقرب ولي اعتادوا أن يقفوا عنده وتزيد الأدعية وتتركز وتعلو أصواتهم وأصوات طبولهم وتنتهي بالدعاء بعد أن ينشدوا في غناء جماعي موشح الصوفي عبد الله بن علوي الحداد ومطلعه:

ألا يا الله بنظرة من العين الرحيمة

التي تنتهي بقوله:

منازل خير سادة لكل الناس قاده محبتهم سعاده

ألا يا بخت من زارهم بالصدق وأنذر

إليهم معتني كل مطلوبه تيسر

الروحات:

هناك نوع آخر من هذه المجالس التي تعرف بالروحات وهي على ثلاثة أنواع فيما أظن، وهذه تعقد بالمساجد كما تعقد أيضاً بالمنازل ويختار لها فترة بعد صلاة العصر أو بعد صلاة المغرب، لكنها لم تنتشر كثيراً وعرف منها:

روحة خاصة: كالتي أنشأها محمد علي الحبشي [٧٤] والتي تعقد بعد مغرب يوم السبت بمسجد الروضة وهي خاصة بمناقب والده علي بن محمد الحبشي صاحب رباط سيئون

والمتوفي بها في ١٣٣٣هـ (١٩١٥م) ويقرأ بها مناقبه وشيئاً من حديثه المدون في مخطوط باسم (المنثور) وتنشد البعض من قصائده التي جمعت في ديوانين فصيح وعامي كل على حدة.

روحة عامة: وقد أسسها بمنزله الوجيه الشيخ علي سعيد باغريب المتوفي في شهر رجب ١٣٧١هـ الموافق مارس ١٩٥٤م وقد ذكر هذه الروحة المؤرخ خميس كرامة حمدان فقال: هو له في الخير يد فقد جعل إحدى غرف منزله مأوى لطلبة العلم وأسس بها روحة تعقد ما بين العصر والمغرب ويقرأ بها طلبة العلم بعض الكتب ومنها كتب المناقب وغيرها[٧٥].

روحة فنية: و هي التي أسسها المؤرخ الفنان عبد الله محمد باحسن المتوفي بالشحر عام ١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م، وقد أشار إليها الأستاذ محمد عبد القادر في بحث نشر بكتاب الرائد باحسن، ولكنه اقتصر على المجلس الفني حيث تدور فيه الأنشطة الفنية من أدب وطرب ومنها النقد البناء المتجرد عن الحساسيات والأضغان، نقداً نزيهاً ومن وحي الساعة ومن فيض الخاطر علاوة على الطرب، أما الشق الآخر من هذه الروحة فكان على طريقة أهل التصوف في استعمال الآلات الشعبية التقليدية كالطار والمطرق، وديوان شعره يضم العديد من القصائد الابتهالية والمدائح[٧٦].

مناشط غنائية أخرى:

أشرنا فيما سبق إلى الرقصات الشعبية الكثيرة والمتنوعة التي تمارس في محافظة حضرموت ومنها بطبيعة الحال مدينة الشحر، ونضيف بأن هذه الرقصات الرجالية منها

والنسائية والمختلطة ذات شقين فنيين، شعراً ورقصاً مع الغناء الفردي والجماعي، وهذا يحدث فيها جميعاً عدا رقصة أو رقصتين يقوم فيهما المزمار (المجوز) بدور الشعر والغناء.

ونحن نستطيع أن نقسم هذه الرقصات إلى نوعين:

الأول: يكون القصيد المغنى فيها قد كتبت قبل الرقص ومهما كان بزمن يسير، ومثل هذه القصائد الأغاني المقدمة من قبل الفنانين في أية مناسبة أو أية نوع من الرقصات المصاحبة للغناء: كالتي تقدم في الطرب أو على إيقاعات الزربادي أو زفة العريس (استماع) وغناء المطبل (المسحراتي) وأغنيات رقصات القناصة قفزان أو المثلوثة ويسمى الاحتفال بالقناصة وغناء زفة العروس (الأنثى) وغناء الهداني والخيبعان وغناء دقاقة البهارات وغيرها، ولممارسة واحدة من هذه الرقصات يتم اختيار قصيدة من العديد من القصائد التي سبق أن تم اختيارها ووضع لها قالباً موسيقياً معيناً، وقد استغل دعاة الصوفية بإدخال العديد من القصائد ذات الطابع الصوفي والتي تحمل مضامين صوفية كالتي سبق أن أشرنا إليها من الابتهالات والمدائح المتنوعة وأضيف إليها أخيراً قصائد ذات أغراض فرائحية ومناسباتية.

الثاني: من هذه الرقصات ما يسبق أداء الرقص فيها مساجلات للشعراء في حلبة تترك لهم ويقابلهم المغني (وأحياناً أكثر من مغنٍ) ويتبارى الشعراء في قول ما عندهم ارتجالاً، وبعض هذه المساجلات تبدأ بالحمد لله والصلاة على رسول الله ﷺ، ثم تتلوها المدائح لصاحب المقام والحكام والشخصيات الحاضرة ثم يأتي على ذكر رأيه في أحداث المنطقة وأحياناً يهرب إلى الأولياء والصالحين ويطالبهم في الحل.

وهناك قصائد تقدم ارتجالاً أو من ذاكرة الرواة لعدد من قصائد المهن اليدوية، وهي تقال على أوزان متفق عليها وهي ألحان موسيقية تساعد في التخفيف من عناء المهن الصعبة، كالمجانة وهي آلة خشبية لحمل الأثرياء أو المرضى إلى مناطق بعيدة، ومهنة الرعه وهي أداة خشبية بسيطة لنقل الطين المعجونة بالماء لصنع اللبن، ومهنة السقائين وهم يحملون صفائح من الماء تتدلى من طرفي عود يحمل بين الكتفين، وكذلك مهنة درس الحبوب وضرب النورة (الكلس) وغير هذا كثير، ولكننا لا نستطيع أن نقف عند كل رقصة من هذه الرقصات الكثيرة والمتنوعة، وهي في الحقيقة معروفة لدى أهل حضرموت ساحلها وداخلها، ولكن لا بأس من ضرب بعض الأمثلة الصغيرة لإثبات مدى تغلغل الفكر الصوفي فيها بواسطة الأشعار التي تُغنى ويُرقص عليها، من ذلك:

أن تتغنى النساء جميعاً في رقصة الدقاقة:

يا سلطانة يا بت علي كل حاجة باتنقضي

أن تزف الطابلة (فنانة شعبية) النساء والعروس من العلويين بقولها:

الحمد لله ملك ما تمنيت يا خيبعان
والجنة الخضراء الحلال حليت يا خيبعان
ظليت فيها النهار وامسيت يا خيبعان

وأن تزف طابلة النساء العروس من المشايخ:

على أهل الشيخ واقي

ومـــن هـــم في حمـــاهم

علـــــيهم مجـــــاب الله

حياطـــــــــة دروب الله

ويرتجز اليافعيون في زاملهم (المرفع) في مثل قولهم:

يـا حمـد بـن صـالح يـا قـرط الـذهب والعمامـة مصـفى والـرادي ذهـب

وفي رقصة (العدة) يرتجز الراقصون في مثل قولهم:

ويـا محضـار جينـا بـانزورك ومـن زارك بغـا منّـك كرامـة

ومن الأبيات المغناة في مهنة السناة، أي رفع الماء من الآبار:

تـريم مـن عـادى تـريم ينـدم فيهـا الخضـر والياس والمقـدم

تـريم لي فيهـا الفقيـه المقـدم فيهـا عبيـد الله وعلـوي الجـم

ولسوف نكتفي بالمهمة التاسعة من رسالة الشيخ علي بن أحمد باصبرين الدوعني (ت١٢٠٤هـ-١٨٨٧م) التي كتبها بعد عودته من الحجاز في رمضان ١٢٩٤هـ (١٨٧٦م) تحت عنوان (المهمات الدينية في بعض المرتكب من المناهج الربانية)[٧٧] والرسالة مخطوطة وتقع في اثنين وعشرين ورقة، ومن مخطوطات مكتبة تريم ويقول في مقدمتها: «نظرت إلى ما عليه الناس من المناهي الربانية وعليه بتقدير العزيز العليم من المخالفات عاكفون...» ومن هذه المهمات وهي التي تحمل الرقم التاسع قوله: «مما يحرم ما يقال عند إقبال الزائرين إلى المزار:

يـــا ولي الله جئنـــا إليـــك وحططنـا الـذنب بـين يـديك

لما في ذلك من الغلو في المزور بإيهام أن له دخلاً في غفر بعض الذنوب فضلاً عن كلها، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ﴾ ولما في ذلك من الجزم للمزور بالولاية وهو غير معصوم ولا ملحق به كمن ثبتت له بشرى من المعصوم بالجنة كالعشرة الكرام، ولقد قلت لبعض العوام ونحن في ذلك المقام لو يقول الزائر:

يا إله الخلق جينا إليك وحططنا الذنب بين يديك

لكان أولى...».

ولقد اعتنى بالرسالة الأستاذ أكرم مبارك عصبان وعمل على تحقيقها ونشرها وجاء في تعليقه على هذه المهمة قوله: «ومما يردده بعض الزوار في زيارة قبر هود المزعوم بأسفل حضرموت شبيهاً بما ورد:

يا نبي الله جينا إليك بانطرح الذنب بين يديك

وفي بذل المجهود (عن السقاف أن هود يتحمل ذنوب زواره حتى يرفعها إلى الله)»[٧٨]

وفي كتاب (الشامل) للمؤرخ علوي بن طاهر الحداد ، تفصيلاً للمقام ومناسبة قول باصبرين لأولئك العوام، قال الحداد: «ومما يدخل في قالب الفكاهة أنه ذكر في رسالته تلك أن الناس هنا إذا دخلوا لزيارة ولي من الأولياء أخذوا ينشدون بقولهم: (يا ولي الله جينا إليك وطرحنا الذنب بين يديك) فقال أن هذا لا يجوز، والأولى أن يقولوا (واستغثنا الله بين يديك) فإن الله عز وجل يقول: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ﴾ وقد أثر نهيه في ما يلي أعلاه من دوعن من البلدان وبقي الناس فيما دونه على ما كانوا عليه... فقد وقع من المصادفات الغريبة أن جاء

إلى بلد قيدون وقصد ضريح الشيخ الصالح الكبير سعيد بن عيسى العمودي يزوره، وبينما هو قائم يدعو إذ أقبل أهل البلد راجعين من الاستسقاء ينشدون بقولهم السابق ذكره، فما كان منه إلا أن وعظهم ونهاهم وقال لهم إن هذا مخالف للشرع ولما في القرآن ولا يغفر الذنب إلا الله فسكتوا على مضض، ولم يظهر له أنهم قبلوا نصحه وخرج راجعاً إلى بلده بعد أن أتم زيارته، فلما وصل إلى طرف البلد قدم إليه حماره ليركبه، فلما وثب زاغ الحمار فسقط هو على الأرض، وهناك من يراه من أهل البلد فقام ينفض ثوبه من التراب ويقول: الآن كفروا الآن كفروا! أي أنهم سيصرون على ما هم عليه ويقولون: لو كان على الحق لما سقط، وأن هذا من تصريف الشيخ سعيد...»

وفي كتاب (رجال وكتب) للشيخ علي سالم بكير فصلاً عن الشيخ باصبرين، حياته وآثاره وكتبه وعلى الخصوص رسالته هذه.

ولم يقتصر الأمر على استغلال هذه المواقف للتغني بالابتهالات والذكر والصلوات والمدائح، بل يتم ذلك حتى عند تشييع الموتى، وجعلوه خاصاً لموتى العلويين، وتبعهم في ذلك بعض المشايخ خاصة آل باوزير. جاء ذلك عند المؤرخ الشاطري ما نصه: «أما الجنائز بتريم منذ أوائل القرن العاشر، حيث ابتدع هذا الذكر السيد عبد الرحمن بن عبد الله مولى خيلة، لكن العلامة أحمد بن حسين العيدروس خالفه فلم يستحسن العمل به لنفسه ولا لأتباعه من بعده ولعل وجهة نظره أنه يرى فيها شيئاً من الابتداع بالنسبة لهذا الموقف»[٧٩].

والغريب أن العيدروس رأى في هذه بدعة ولم ير في حضرة جده شيئاً بل زينها بجلب المنشدين من عرف ومن مصر كما يقول الشاطري أيضاً، ومع ذلك لم يلتفت إلى رأيه هذا واستمر العمل بهذا النشيد الجنائزي الحزين إلى يومنا هذا، وخص به العلويين وشاركهم

في ذلك بعض المشايخ، ورأيت بنفسي جنائز الشيخ محمد عوض باقوي باوزير، والشيخ سقاف صالح الهدار والشاعر حسين أبو بكر المحضار.

الخلاصة

أننا وجدنا أن دعاة التصوف وخاصة الشعراء منهم لم يدخروا جهداً في استغلال الفرص السانحة والمتاحة في صور شتى وخاصة شعر الأغنيات وشعر الرقصات الشعبية وأغاني العمل وغير ذلك فدخلوا إليها وملؤوها بأفكارهم وأيدلوجياتهم، ومر زمن طويل والناس في فلكهم يدورون وهم لا يدرون عن الخلافات الحادة والمتباينة حول الغناء وتحريمه وتحليله والتي لا تصل إلى العامة.

ونستنتج أن للتصوف الدائر أنشطته هنا في حضرموت فكراً وقاداً ولم يكن بأي حال من الأحوال مدرسة حضرمية كما يدعي البعض، فهو في الأصل فكر نشأ في المغرب العربي وصدّر إلينا في حضرموت.

وفي مقامنا هذا يجب أن لا ننسى رسالة المولى سليمان (١١١٨-١٢٣٨هـ =١٧٦٦-١٨٢٢م) وهو سليمان بن محمد بن عبد الله، الشريف العلوي، من سلاطين دولة الأشراف العلويين في مراكش، بويع له بفاس سنة ١٢٠٦هـ كان عاقلاً باسلاً محباً للعلم والعلماء، له آثار في عمران فاس وغيرها، قال الكتاني: كان من نوادر ملوك البيت العلوي في الاشتغال بالعلم وإيثار أهله...[٨٠].

المولى سليمان هذا وجه رسالة شهيرة جاءت بعنوان (آلات الموسيقى) وجهها إلى أرباب الطوائف وأشار فيها إلى أن السماع ابتداع من أهل الأهواء الذين أحدثوا في الدين ما يستوجب نار جهنم، ونصحهم قائلاً: «طهروا من دنس البدع إيمانكم.. كل ذلك بدعة شنيعة، وفعلة فظيعة، ووصمة وضيعة، وسنة مخالفة لأحكام الشريعة.. زينه الشيطان لأوليائه فوقتوا له أوقاتاً... فلا تميلوا بالناس يميناً وشمالاً، فليس في دين الله ولا في شرع نبي الله أن يتقرب إلى الله بغناء ولا شطح».

سامحنا الله فيما قصدناه

فبراير ٢٠١٠م

ثبت المراجع والإحالات

-باهارون، عبد الله عبد الرحمن، أنس السالكين ـ خ، مكتبة سالم عبد الله حمدون ـ الشحر.

-باحسن، عبد الله محمد، النفحات المسكية في أخبار الشحر المحمية ـ خ،نسخة مصورة لدى الكاتب.

- الحبشي، عيدروس محمد،عادات شحرية على مدار الأيام والشهور والسنين ـ خ، بحث لم ينشر، لدى الكاتب نسخة منه.

- خميس كرامة حمدان، أعلام شحرية لها تاريخ ـ خ، بقلم المؤلف انتهى من تبييضه بجدة بتاريخ ٣٠ رجب ١٤١٢هـ (٣ نوفمبر ١٩٩٢م).

- الصبان، عبد القادر محمد، جهاد شعب، صدر الجزء الأول منه بآلة النسخ الرونيو بسيئون في نوفمبر ١٩٨١م.

- فرقة الوفاء لإحياء الحفلات الدينية بالإنشاد والزربادي (جمع وترتيب)، كتاب روائع من الحد والدان الحضرمي بذوق فن الزربادي (نسخة مصورة)، توزيع مكتبة تريم الحديثة للطباعة والتوزيع، حضرموت، ط٢، ٢٠٠٨م.

- المشهور، عبد الرحمن محمد، المنهل العجيب الصاف في فضيلة وكيفية حضرة السقاف (نسخة مصورة).

- ابن أعثم، أبو محمد أحمد الكوفي، الفتوح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٦م، ج١.

- ابن خلدون، عبد الرحمن محمد، المقدمة، الجزء الأول من تاريخه، دار العودة بيروت، ١٩٨١م (علم التصوف).

- ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، تفسير القرآن، تحقيق سامي محمد السلامة، دار طيبة، الرياض،ط٢، ١٩٩٩م، ج٢.

- ابن عقيل، زين بن سالم، الشعر الصوفي في حضرموت في القرنين التاسع والعاشر الهجريين، رسالة ماجستير لم تنشر، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، العراق، أيلول ١٩٩٩م.

- ابن المقري، عني بطبعه ونشره عبد الله إبراهيم الأنصاري، طبع على نفقة دار إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر، دون تاريخ.

- ابن حبيب، أبو جعفر محمد، المحبر، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، عاصمة الدولة الأصفية، حيدر أباد الدكن عام ١٩٤٢م.

- المنمق في أخبار قريش، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، عالم الكتب بيروت صورة على نسخة مطبعة حيدر أباد بالهند.

- الأسد، د. ناصر الدين، القيان والغناء في العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٨م.

- باصبرين، علي بن أحمد، المهمات الدينية في بعض المرتكب من المناهي الربانية، تحقيق أكرم مبارك عصبان، مطبعة وحدين المكلا، دون تاريخ.

- بامخرمة، الطيب عبد الله، قلائد النحر، تحقيق محمد يسلم عبد النور، إصدار وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ط١، ٢٠٠٤م، ج٣.

- باوزير، سعيد بن عوض، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، دار الطباعة الحديثة، ط١، ١٩٦١م.

- بامطرف، محمد عبد القادر، الشهداء السبعة، دار الحرية للطباعة، مطبعة الجمهورية بغداد، ط١، ١٩٧٤م.

- باحسن الرائد والفنان، دار الهمداني للطباعة والنشر، عدن، ط١، ١٩٨٥م.

- بكير، علي سالم، رجال وكتب، دار حضرموت للنشر، دون تاريخ.

- البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله وعمر أنيس الصباغ، منشورات مؤسسة المعارف،بيروت، لبنان ١٩٨٧م.

- بو عزيز، يحيى، موجز تاريخ الجزائر، المطبوعات الجزائرية، إشراف دار الطليعة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٦٥م.

- جوبان، محمد محفوظ، اليمن والخوارج حتى نهاية العصر الأموي، رسالة ماجستير، جامعة عدن ودار الثقافة بالشارقة، ط١، ٢٠٠٢م.

- الحبشي، أحمد بن زين، شرح العينية، قصيدة علوي بن عبد الله الحداد، مطبعة كرجاي المحدودة، سنغافورة، ط١، ١٩٨٧م.

- الحداد عبد الله بن علوي، الدر المنظوم (ديوان) مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط٣، ١٩٥٧م.

- الحداد، علوي بن طاهر، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها، مطبعة أحمد برس، سنغافورة، ط١، ١٩٤٠م.

- الحمادي، محمد بن مالك، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تحقيق محمد زينهم محمد العزب، دار الصحوة للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٩٨٦م.

- دائرة المعارف الإسلامية، مطابع دار الشعب، القاهرة، مجلد١٥، مادة (حضرة).

- الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٢، ١٩٩٧م.

- السالمي، أبو محمد عبد الله بن حميد، جوهر النظام في علمي الأديان والأحكام، طبع على نفقة حفيدي المؤلف،مطبعة الألوان الحديثة، ط١٢، ١٩٨٩م،ج٣.

- سعاد ماهر محمد (دكتورة)، مساجد مصر وأولياؤها الصالحين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، ط١، ١٩٧١م، ج١.

- السقاف، عبد الرحمن بن عبيد الله، إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، تحقيق محمد أبو بكر باذيب، دار المنهاج، جدة، ط١، ٢٠٠٥م.

- الشاطري، محمد أحمد، أدوار التاريخ الحضرمي، عالم المعرفة، جدة،ط٢، ١٩٨٣م.

- الشريف، صميم، الأغنية العربية، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد، دمشق.
- شوقي ضيف (دكتور)، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف بمصر، دون تاريخ.
- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، تحقيق إياد بن عبد اللطيف القيسي، دار ابن حزم،ط١، ٢٠٠٥م.
- الطويل، توفيق (دكتور)، في تراثنا العربي الإسلامي، عالم المعرفة الكويت عدد ٧ و٨ مارس، ١٩٨٥م.
- سركيس، يوسف اليان، معجم المطبوعات العربية والمعربة، دار صادر، بيروت، ١٩٢٨م.
- عبد اللطيف، محمد فهمي، السيد البدوي، ودولة الدراويش بمصر، المركز العربي للصحافة، القاهرة ط١.
- عبد العزيز عبد الجليل، مدخل إلى تاريخ الموسيقى المغربية، عالم المعرفة، الكويت عدد ٦٥، مايو ١٩٨٣م.
- عمارة، محمد، الإسلام والفنون الجميلة، دار شروق، بيروت، ط١، ١٩٩١م.
- عماني، جمعان سالم، التوضيحات في الحول والحضرة والزيارات، مطابع وحدين المكلا، محافظة حضرموت، دون تاريخ.
- عنان، محمد (دكتور) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٣م.
- غانم، محمد عبده (دكتور)، شعر الغناء الصنعاني، دار العودة بيروت، ط٥، ١٩٨٧م.
- فارمر، هنري جورج، تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن الثالث عشر الميلادي، ترجمة جرجس فتح الله المحامي، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ.
- المشهور، أبو بكر العدني، الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم، أعلام حضرموت، فرع الدراسات والمناهج وخدمة التراث، ط١، ١٩٩٩م.

- المقدسي، البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع في لندن، ١٩٠٩م.
- المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار (خطط المقريزي) تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، ١٩٩٨م.
- بن هاشم، محمد، تاريخ الدولة الكثيرية، قام بالإشراف على طبعه محمد علي الجفري، ط ١٩٤٨م.
- الهمداني، أبو إسحاق إبراهيم، السيف النقاد (ديوان شعر) تحقيق بدر بن هلال اليحمدي، شركة العالم للإعلام والنشر، سلطنة عمان، روي، ط١ ٢٠٠٢م.
- مجلة الحكمة (عدن) عدد ٢٩، يوليو ١٩٧٤م.
- نشرة (الرباط) يصدرها رباط المصطفى بالشحر، عدد ١٥، يونيو ٢٠٠١م.

الهوامش

(١) تاريخ الموسيقى العربية، فارمر ص٩٠.

(٢) مقدمة محقق كتاب المنمق لابن حبيب.

(٣) اليمن والخوارج حتى نهاية العصر الأموي، جوبان ص٢٤١.

(٤) جوهر النظام، السالمي (٣/ ١٩٤)، الفكر والثقافة لباوزير ص٧٢.

(٥) تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (١/ ٢٧).

(٦) ديوان السيف النقاد، الهمداني ص٣٩٩.

(٧) الشهداء السبعة، بامطرف ص٩٩.

(٨) موجز تاريخ الجزائر، بو عزيز ص٩٩.

(٩) نفس المصدر ص١٠٠.

(١٠) نفس المصدر ص١٠٢.

(١١) مدخل إلى تاريخ الموسيقى المغربية ، عبد الجليل ص٢٥.

(١٢) الأغنية العربية، الشريف ص١٤١.

(١٣) شرح العقيدة الأصفهانية، ابن تيمية ص١٤١٥.

(١٤) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ص١٤٠٨.

(١٥) في تراثنا العربي الإسلامي، د. الطويل ص١٧٢.

(١٦) تاريخ الأدب العربي، ضيف ص٤٨١.

(١٧) الإسلام والفنون الجميلة، محمد عمارة ص٨١.

(١٨) المصدر السابق.

(١٩) السيد البدوي ودولة الدراويش، عبد اللطيف ص٢٦.

(٢٠) انظر ما كتبه ابن خلدون في المقدمة عن التصوف والفاطمي المنتظر.

(٢١) السيد البدوي ودولة الدراويش، عبد اللطيف ص٢٨.

(٢٢) الأغنية العربية، الشريف ص١٤١.

(٢٣) مدخل إلى تاريخ الموسيقى المغربية، عبد الجليل ص٤٥.

(٢٤) الديوان المحقق ص٣٥٨.

(٢٥) نفس المصدر ص٣٥٢.

(٢٦) نفس المصدر ص٢٣٥.

(٢٧) نفس المصدر ص٣٥٧.

(٢٨) الشهداء السبعة، بامطرف ص (٢٩-٣٠).

(٢٩) خطط المقريزي، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، سعاد ماهر (١/ ١٩٧١).

(٣٠) الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم، العدني ص٢٧.

(٣١) نفس المصدر ص٣٤.

(٣٢) النفحات المسكية، باحسن.

(٣٣) أدوار التاريخ الحضرمي، الشاطري (٢/ ٢٦٥).

(٣٤) تاريخ الأدب العربي، ضيف (٤/ ١١١).

(٣٥) نفس المصدر ص١١٤.

(٣٦) شعر الغناء الصنعاني، غانم ص (٦٢-٦٣).

(٣٧) الأعلام، الزركلي (٢/ ٦٤).

(٣٨) مدخل إلى تاريخ الموسيقى المغربية، عبد الجليل ص٤٠.

(٣٩) نفس المصدر ص٤٠.

(٤٠) نفس المصدر ص٤١.

(٤١) نفس المصدر ص٤٢.

(٤٢) الحاوي للفتاوى، السيوطي ص١٨٩.

(٤٣) تحقيق إبراهيم المقحفي، مكتبة الإرشاد صنعاء ط١، ٢٠٠٣م ص٣٠٠

(٤٤) ديوان ابن عبيد الله.

(٤٥) تاريخ الدولة الكثيرية، بن هاشم ص٧٣.

(٤٦) البرزنجي، جعفر المدني ت ١١٧٧هـ - ١٧٦٣م، خطيب الحرم المدني.

(٤٧) الديبعي، عبد الرحمن بن علي، من أهل زبيد (٨٦٦-٩٤٤هـ=١٤٦١-١٥٣٧م).

(٤٨) المشرع الروي، (٢/ ١٤٣).

(٤٩) نفس المصدر (٢/ ٣٣).

(٥٠) مختصر لما جاء بدائرة المعارف الإسلامية، مادة حضرة.

(٥١) تاريخ الأدب العربي، ضيف (٤/ ١١٣).

(٥٢) الأعلام، الزركلي (٦/ ٢٧٢).

(٥٣) أدوار التاريخ الحضرمي، الشاطري (٢/ ٢٦٤).

(٥٤) الأعلام، الزركلي (١/ ١٧٤).

(٥٥) شرح العينية، الحبشي ص١٠٣.

(٥٦) ديوان أبي فراس الحمداني.

(٥٧) أدوار التاريخ الحضرمي، الشاطري (١/ ١٩٠).

(٥٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٣٤٨).

(٥٩) الأعلام، الزركلي (٢/ ١٩٠٩).

(٦٠) نفس المصدر (٦/ ٢٠٨).

(٦١) إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، ابن عبيد الله ص٨٨٠.

(٦٢) قلائد النحر، بامخرمة (٣/ ٢٦٥٧).

(٦٣) من يريد الاستزادة فعليه الرجوع إلى خطط المقريزي وصبح الأعشى وكتاب الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية للدكتور محمد عنان، ففيه يذكر المراسيم الاجتماعية والدينية ص١٢٤ والأعياد والرسوم الفاطمية ص٣٤٩.

(٦٤) مدخل إلى تاريخ الموسيقى المغربية، عبد الجليل ص٥٨.

(٦٥) نفس المصدر.

(٦٦) الشهداء السبعة، بامطرف ص١٠٢.

(٦٧) نفس المصدر ص٩١.

(٦٨) ديوان ابن المقري.

(٦٩) ص١٥١.

(٧٠) الحكمة، السقاف ص٦٧.

(٧١) تاريخ الدولة الكثيرية، ابن هاشم ص٦،٧،٨.

(٧٢) نشرة (الرباط) العدد الخامس ١٤٢٢هـ.

(٧٣) لدى الكاتب نسخة منه.

(٧٤) توفي محمد بن علي الحبشي السبت ١٢ ربيع ثاني ١٣٦٥هـ، مارس ١٩٤٦م.

(٧٥) أعلام شحرية لها تاريخ، حمدان.

(٧٦) باحسن الرائد والفنان، قدم له الأستاذ/ محمد عبد القادر بامطرف.

(٧٧) لدى الكاتب نسخة مصورة منها.

(٧٨) المهمات الدينية، باصبرين ص٥٠.

(٧٩) أدوار التاريخ الحضرمي، الشاطري ص٢٦٤.

(٨٠) الأعلام، الزركلي (٢/ ١٣٣).

الفهرس

المقدمـــة ٣
مـــدخل ٤
الغنـاء في حضـــرموت ٤
الأباضـية والأغنيـة ٦
الصـــليحيون ٧
الدولـة الفاطميـة ٨
الغنـاء والموسـيقى ١٠
أمـر الحـلاج ١١
اسـتغلال التصـوف ١٢
الغناء في آخر أيام الأباضية ١٥
الأيوبيـــون ١٧
مبعـوث أبي الغـوث ١٩
السـماع في حضـــرموت ٢٠
فـن التغنـي بالمدائح النبويـة ٢٥
الاحتفـال بالمولـد ٢٦
القيـام عنـد ذكـر الرسـول ﷺ ٢٨
الاحتفـال بالمولـد في حضـــرموت ٢٩

الحضـــــرة ٣١
حضـــرة الســقاف ٣٤
المــدائح الرمضــانية ٣٦
الوتريــة والقــوافي ٣٧
الفزازيـــة ٣٨
المآخـــذ ٣٩
الختاميــات أو الختــوم ٣٩
تطــورات مثــيرة ٤٠
السماع الصوفي بمدينة الشحر ٤٣
السلطان علي بن بدر وقاضيه باحسن ٤٩
الحضـــرات بالشــحر ٥١
الموالــد بالشــحر ٥٤
المـدائح الرمضـانية والختاميـات ٥٧
الروحـــات ٥٩
مناشـط غنائيـة أخـرى ٦٠
الخلاصـــة ٦٦
المراجـع والإحـالات ٦٨
الهـــوامش ٧٣
الفهـــــرس ٧